المجلة العلمية لكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بدمياط الجديدة

# سِنُّ الأَرْبَعِينَ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ
## دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ

الدكتور
محمد إسماعيل إبراهيم الشهاوي
مدرس الأدب والنقد في كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنات ببورسعيد
جامعة الأزهر

العدد الخامس عشر (سبتمبر ٢٠٢٤م)
الترقيم الدولي ISSN (2356- 6353)
الترقيم الدولي الإلكتروني (2636- 2716)
رقم الإيداع بدار الكتب (18766/ 2013)

# سِنُّ الأَرْبَعِينَ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ

**ملخص البحث:**

يتناول هذا البحث "سن الأربعين في الشعر العربي القديم، دراسة تحليلية؛ لمعرفة رؤى الشعراء ونظرتهم إلى هذه المرحلة العمرية التي تتسم بالأهمية؛ نظرًا لكونها مفترق طرق في حياة كل إنسان، ومرحلة عمرية فاصلة بين ما فات من جهل الشباب، وبين ما هو آت من بلوغ الأشد، وتمام العقل.

وقد بيّن البحث اختلاف نظرتهم إلى هذه السن، فمنهم من يجنح ناحية الشباب ويراها سن الفتوة والملك والنبوة، ومنهم من يرى بؤس الحياة فيجعلها رمزًا للشيب والهرم، والبعد عن الحياة وملذاتها، والقرب من الموت، وقد وقف بعضهم منها موقفًا وسطا، ورأى أن الأربعين تقتضي الحكمة والتعقل، والتدبر والتأمل، مع الدعوة إلى الاستقامة والتوبة، ومشاعر الشعراء تختلف وتتباين باختلاف نظراتهم، الأمر الذي يؤدى إلى اختلاف أساليبهم وأفكارهم وعواطفهم وتجاربهم.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وخمسة مطالب، وخاتمة، وفهارس أما التمهيد فيتناول دلالات سن الأربعين في القرآن الكريم، والحديث الشريف، وعلم النفس.

وأما المطالب الخمسة فتناولت سن الأربعين مع النبوة، ومع الملك، ومع الحكمة، ومع هجر العذارى، ومع الشيب، ثم كانت الخاتمة لأهم النتائج التي توصل إليها البحث.

**الكلمات المفتاحية:** سن الأربعين، الشعر، العربي، القديم، دراسة تحليلية.

# The age of forty in ancient Arabic poetry, an analytical study

**Abstract**:

This research deals with "the age of forty in ancient Arabic poetry, an analytical study, to know the visions of poets and their view of this age stage, which is important, as it is a crossroads in the life of every human being, and an age stage separating between what is missed from the ignorance of youth, and what is coming from reaching the maturity, and the fullness of the mind.

The research has shown the difference in their view of this age, some of them tend towards youth and see the age of bullying, power and prophecy. On the other hand, some of them see the misery of life which makes it a symbol of ageing, away from life and its pleasures, and proximity to death. Some of them stood in the middle, and saw that the forty require wisdom and reason, and contemplation and meditation, with the call to integrity and repentance. The feelings of poets vary according to their views, which leads to their different methods, ideas, emotions and experiences.

This research includes an introduction, a preamble, five demands, a conclusion and indexes. The preamble deals with the semantics of the age of forty in the Holy Qur'an, hadith, and psychology.

The five demands dealt with the age of forty with prophecy, with power, with wisdom, with the abandonment of virgins and with ageing. Then, was the conclusion of the most important results of the research.

**Keywords**: The age of forty, the ancient, Arabic, poetry, an analytical study .

# مُقَـــدِّمَة

الحمد لله رَبِّ العالمين والصَّلاةُ والسَّلَامُ على أشرفِ المرسلين سيدنا محمد، أُذن الخير التي استقبلت آخر إرسال السماء إلى الأرض، ولسان الصدق الذي بَلَّغ مراد الحق إلى الخلق.

وبعدُ؛

فالأربعون سِنٌّ فارقةٌ، ومرحلةٌ بارقةٌ، تُطوى فيها صفحاتٌ وتُبْسَطُ أخرى، تتأرجحُ فيها الهِمَمُ بين صُغْرى وكُبرى، يبلغ فيها الإنسانُ قمة نضجه العقلي، وذروة نشاطه الجسدي، فهي سن القوة والأشد، وأَوْجُ العطاء ولابد.

وقد اهتم القرآن الكريمُ بهذه السنِّ وأولاها عناية، كما كانت في الحديث الشريف محطَّ اكتراثٍ ورعاية؛ وتباينت مواقفُ الشعراء فيها بين كونها بدايةً أو نهاية، حتى صارت الأربعون سِنًّا فريدة، ينتقلُ الإنسانُ من خلالها إلى مرحلة جديدة.

وقد جاء هذا البحث بعنوان "سنّ الأربعين في الشعر العربي القديم، دراسة تحليلية"؛ للنظر في أسرار هذه المرحلة العمرية، وبيان آثارها النفسية، وسماتها العقلية، وكشف الغطاء عن نظرة الشعراء الذاتية، فِي ظلِّ شبه الثراء الموجود في مادتها التراثية.

وطبيعةُ الدراسة اقتضتْ أن يكونَ المنهجُ الوصفي التحليليُ هو الغالبُ؛ لكونه –بطبيعة حاله– هو المنهجُ الخلَّابُ الجاذبُ، الذي يستطيعُ كشفَ النقاب عن الخبايا، وهتك الحجاب عن الخفايا التي تعتمل في نفوس الشعراء، فيتحولُ ظمأُ القارئ إلى رِواء، وضبابيةُ الصورة إلى ضياء.

وجِدَّة الموضوع، وما امتاز به هذا العمر من الشيوع، وجودةُ منابعه، وخصوبةُ مرابعه كانت من أهم البواعث على إتمام هذه الدراسة، الأمر الذي يجنح بالبحث إلى تحليل النماذج الشعرية التي تحدثت عن هذه المرحلة العمرية لاستجلاء غوامضها وكشف أسرارها، فضلًا عن أن الأربعين هي السن الوحيدة التي ذكرت في القرآن الكريم؛ الأمر الذي استدعى البحث عن ماهية سن الأربعين في النصوص محل الدراسة.

وتجدر الإشارة إلى أنني لم أقف على أي دراسات سابقة لهذا الموضوع الذي يتناول مرحلة عمرية خاصة، فلم أجد عند الدارسين أي تناول لها أو مثيلاتها بشكل أو بآخر، الأمر الذي جعل وضع حدودٍ زمنيةٍ للبحث صعبًا للغاية، فجاءت الدراسة لتشمل كل الشعر العربي فيما قبل العصر الحديث.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وخمسة مطالبَ، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع.

- أما **المقدمة**: فقد تحدثت فيها عن الافتتاحية، وبينت فيها أهمية الموضوع، وأهداف الدراسة، ومنهج البحث، وخطته.
- وأما **التمهيد**: فقد جاء تحت عنوان "دلالات سِنّ الأربعين"، وقد اشتمل على ثلاثةِ عناصرَ:
  - أولًا: دلالة سن الأربعين في ضوء القرآن الكريم.
  - ثانيًا: دلالة سن الأربعين في ضوء المرويات الحديثية والأقوال المأثورة.
  - ثالثًا: دلالة سن الأربعين في ضوء علم النفس.
- وأما صلب الموضوع فقد جاء تحت عنوان "سن الأربعين في الشعر العربي القديم"

متمثلًا في خمسةِ مباحثَ على النحو التالي:

- المبحث الأول: "سن الأربعين والنبوة"
- المبحث الثاني: "سن الأربعين والملك"
- المبحث الثالث: "سن الأربعين والحكمة"
- المبحث الرابع: "سن الأربعين وهجر العذارى"
- المبحث الخامس: "سن الأربعين والشيب"

❖ **الخاتمة**: وتشتمل على أهم النتائج التي توصَّل إليها البحث.

❖ فهرس المصادر والمراجع.

واللهَ- سبحانه وتعالى- أسألُ أن ينفع بهذا العمل، وأن يهبه القبول والسداد.

**د/ محمد إسماعيل إبراهيم الشهاوي**

**مدرس الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية**

**للبنات ببورسعيد**

# التمهيد
# دلالات سن الأربعين

ما أكثر مراحل الإنسان في الحياة!، وما أندر المراحلَ ذات التأثير، وصاحبة التغيير، وتعدُّ سنُّ الأربعين أكثرها تمييزًا؛ حيث إن الإنسان يقف أمامها طويلًا، ويلتمس لنفسه سبيلًا بعدما يجدُّ نفسه في مفترق طرق بين ماضٍ بائدٍ بما فيه حسنات وهنات، ومستقبل مجهول مكتظٍّ بالآهات والحسرات، ولأن كل المؤشرات تتجه ناحية أن الأربعين مرحلة مثيرة للاهتمام، وإن شئت فقل مرحلة حسّاسة؛ كانت جديرة بالنظر والدراسة.

وفيما يلي عرض لدلالات سن الأربعين في القرآن الكريم، وفي المرويات النبوية وأقوال السلف المأثورة؛ في محاولة لإيجاد جذور لهذه المرحلة العمرية خاصة مع خلو الشعر العربي المتعمق في القدم من جذور حقيقية تأصيلية لهذه المرحلة؛ من أجل الوقوف على مدى تأثر الشعراء بهذه الدلالات، ومن ثم التعرف على طريقة تفكيرهم ونظرتهم إلى سن الأربعين، ثم يأتي عرض دلالاتها في ضوء علم النفس الحديث الذي يسهم بدوره في فهم الإنسان وسلوكه، ويساعد الأشخاص على التعرف على ذواتهم ودوافعهم وطريقة تفكيرهم فضلًا عن إبراز عواطفهم، كما أنه العلم الذي يعنى بدراسة المراحل العمرية، وبيان ضوابطها وسماتها ودلالاتها المختلفة ومدى تأثيرها على الأشخاص، وسوف يعمل البحث على إظهار أوجه التشابه أو التقارب بين هذه الدلالات وما ورد في الشعر العربي القديم من رؤى ونظرات حولها.

## أولًا: دلالات سن الأربعين في ضوء القرآن الكريم:

تدور دلالات الأربعين في التنزيل الحكيم حول معاني النضج وتمام العقل، والتأمل الذي يستتبع الشكر، والطمع في صلاح الذرية، والإنابة والرجوع إلى الله

ﷺ، قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}(١).

وعلى الرغم من اختلاف بعض المفسرين في بيان المراد من بعض ألفاظ الآية القرآنية، إلا أنها على سبيل الإجمال تشير إلى أن الأربعين هو سن التمام والكمال، والأشد والقوة.

وكونه بلغ أشده بمعنى أنه بلغ زمان انتهاء اشتداد جسمه وقوته، وهو ما بين الثلاثين والأربعين، وقيل: هو خمس وثلاثون سنة، وتمامه الأربعون، وقيل: إنه ثمان وثلاثون، وقيل: إنه أربعون" (٢)

كما ورد أيضًا أن المراد بالأشد هو كمال قوته وعقله ورأيه، وأقله ثلاث وثلاثون، وتمامه هو الأربعون، وهو أكثر الأشد(٣).

والأشد أيضًا هو نهاية القوة والشباب وكمال العقل، الأمر الذي يعني أنه إذا بلغ الأربعين انصرف إلى الله تعالى بكُلِّيته طالبًا منه الإلهام والتوفيق والعون على الشكر على كمال نعيم الدين ونعيم الدنيا، وإنما يكون هذا الشكر بصرف النعم في طاعة مُسيِّرها

---

(١) سورة الأحقاف، آية ١٥ .

(٢) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، ١٢/ ٢٠٩، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٣) انظر: تفسير الجلالين، محمد بن أحمد+ عبدالرحمن بن أبي بكر المحلى+ السيوطي،٦٦٨/١، دار الحديث– القاهرة، ط١ .

ومواليها، ومقابلته على منته، بالاعتراف والعجز عن الشكر والاجتهاد في الثناء بها على الله [١].

وإلى هذا المعنى يشير ابن كثير أيضًا في تفسيره في معرض حديثه عن هذه الآية الكريمة، يقول: "بلغ أشده: أي قوي وشبّ وارتحل، وبلغ أربعين سنة أي تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه، ويقال: إنه لا يتغير غالبًا عما يكون عليه ابن الأربعين" [٢]

والحاصل بعد هذا العرض السريع والنظرة الخاطفة أن الأربعين هو سن الأشد، سواء أكانت القوةُ حاصلةً قبل الأربعين وتمت به، أم كان الأشدُّ متلبسًا بالأربعين مقصورًا عليه، وهو سن النضج، وتمام العقل.

كما أن هناك ملمحًا آخر غير دلالةِ الرشدِ والأشدِ، وهي دلالة التأمل والتدبر في نعيم الله ﷻ على الإنسان، وهي تستوجبُ بالتبعية شكر الله تعالى على كل ما أنعم وأولى وأسدى.

ولأنه لا نهاية لكرم الله على عباده، تجلت ظاهرة الطمع في نوال الله تعالى بصلاح الذرية، وكأن الإنسان بعد ما اتسم بالحكمة في هذه المرحلة العمرية أدرك أهمية تربية أبنائه على القيم الإسلامية الصحيحة، والأخلاق الإيمانية المستقيمة الصريحة.

وسن الأربعين كما بدا في القرآن الكريم دالّةٌ واضحة على التوبة والإنابةِ،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ٧٨١/١، مؤسسة الرسالة-بيروت ،١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، تحقيق: ابن عثيمين.

(٢) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، ١٥٩/٤، دار الفكر-بيروت،١٤٠١هـ.

والكف عما كان يفعل الإنسان في شبابِهِ، وأنه ينبغي عليه الرجوعُ والتذللُ والخضوعُ إلى الله مولاه، والاستسلام التام لمن تاب عليه وهداه.

## ثانيًا: دلالات سنِّ الأربعين في ضوء المرويات الحديثية، والأقوال المأثورة:

إن أبرز إشارةٍ وأظهر دلالة نستطيع الوقوف عليها عند مطالعة السنة النبوية المطهرة في حديثها عن سنِّ الأربعين هي أن الأربعين سنُّ النبوة، حيث كانت بعثةُ النبيّ ﷺ وهو ابن أربعين سنة، كما ورد في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه حيث يقول: "كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، ولا بالأبيض الأمهق[١]، وليس بالآدم[٢]، وليس بالجعد[٣] القطط[٤]، ولا بالسبط[٥]، بعثه الله على رأس أربعين سنة، فأقام بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، فتوفاه الله وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء"[٦].

(١) الأمهق: الأبيض الشديد البياض الذي لا يخالط بياضه شيء من الحمرة، لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ٣٤٩/١٠، دار صادر – بيروت، ط:١، مادة: (مهق).

(٢) الأدمة السمرة والآدم من الناس الأسمر، مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، ٤/١، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، طبعة جديدة، تحقيق: محمود خاطر، مادة: (أدم).

(٣) الجعد من الشعر: خلاف السبط، لسان العرب، ١٢١/٣، مادة: (جعد)

(٤) قطط الشعر قططا اشتدت جعودته، الأفعال، أبو القاسم علي بن جعفر السعدي، ٥١/٣، عالم الكتب – بيروت – ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م ، ط١، مادة: (قطط)

(٥) السبط: الشعر الذي لا جعودة فيه، وشعر سبط: سبط مسترسل غير جعد، لسان العرب، ٣٠٨/٧، مادة: (سبط)

(٦) الجامع الصحيح المختصر ، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي،١٣٠٣/٣، دار ابن كثير– اليمامة –بيروت ،١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ط٣، تحقيق: مصطفى ديب البغا.

ومثل ذلك أيضًا ما ورد في مسند الإمام أحمد، عندما سأل العلاءُ بن زياد العدوي أنسَ بن مالك ﷺ: "يا أبا حمزة سِنُّ أيِّ الرجال كان نبي الله ﷺ إذ بعث؟ قال: ابن أربعين سنة، قال: ثم كان ماذا؟ قال: كان بمكة عشر سنين، فتمت له ستون سنة، ثم قبضه الله ﷻ إليه"(١)

وليس هناك خلاف في أن سن الأربعين هي سن نبوة النبي ﷺ إلا ما وفقتُ عليه في "سبل الهدى والرشاد" من أنه كانت سنَّه ﷺ حين جاءه جبريل في غار حراء أربعين سنة على المشهور وقيل: ويومًا، وقيل: وعشرة أيام، وقيل: وشهرين، وقيل: وسنتين، وقيل: وثلاثة، وقيل: وخمس(٢).

وكما كانت بعثةُ النبي ﷺ في الأربعين، كذلك كانت بعثة نوح عليه السلام، فعن عبد الله بن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "بعث الله نوحًا لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا"(٣).

فالثابت إذًا أن بعثة النبي ﷺ، وبعثة نوح عليه السلام كانت لأربعين سنة، وهذه هي دلالة الأربعين في المرويات الحديثية التي وردت عن النبي ﷺ، ولعل في بعثة النبي ﷺ وسيدنا نوح عليه السلام في هذه السن تأكيد لما جاء به القرآن الكريم من أن هذه السن هي سن تمام العقل وكمال الرشد.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، ١٥١/٣، مؤسسة –مصر .

(٢) انظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت:٩٤٢هـ)،٢٢٥/٢، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض.

(٣) المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، ٥٩٥/٢، دار الكتب العلمية –بيروت، ١٤١١هـ -١٩٩٠م، ط١، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

ولستُ هنا بصدد الحديث عن أن الأربعين هي سِنُّ جميعِ الأنبياء حين بعثتهم، ولا الدخول في خلاف طويل لا طائل من ورائه؛ لأنه لا يشترط هذا في حقهم، "قال ابن الجوزي: حديث (ما من نبي نُبِّئ إلا بعد الأربعين) حديث موضوع"(١)

وهناك ملمحٌ آخر يمكن استنباطه من بعض أقوال السلف عن سن الأربعين، قال مسروق(٢): إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله(٣) .

وقال النخعي(٤) : كان يقال إذا بلغ الرجل أربعين سنة على خُلُقٍ لم يتغير عنه حتى يموت(٥)، وقال محمد بن على بن الحسين(٦): إذا بلغ الرجل أربعين سنة نادى

(١) سبل الهدى والرشاد ٢٢٦/٢

(٢) مسروق بن الأجدع، مات سنة ثنتين وستين، وكنيته أبو عائشة، هو ابن عبد الرحمن الهمداني، سمع من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، التاريخ الصغير (الأوسط)، محمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ)، ١٢٣/١، دار الوعي- مكتبة دار التراث- حلب- القاهرة ،١٣٩٧ - ١٩٧٧م، ط١، تحقيق: محمود إبراهيم زايد .

(٣) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري(ت: ٥٣٨هـ)، ٢٧/٣، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ط١، تحقيق: عبد الأمير مهنا.

(٤) إبراهيم بن يزيد النخعي، يكنى أبا عمران، كوفي ثقة، وكان مفتي الكوفة هو والشعبي في زمانهما، وكان رجلا صالحا فقيها متوقيا قليل التكلف، ومات وهو مختف من الحجاج، وقد أدرك جماعة من أصحاب النبي ﷺ، ورأى عائشة رضي الله عنها، معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم ، أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الكوفي نزيل طرابلس الغرب (ت:٢٦١هـ)، ٢٠٩/١، مكتبة الدار – المدينة المنورة – السعودية – ١٤٠٥ – ١٩٨٥م، ط١، تحقيق: عبد العليم عبد العظيم البستوي.

(٥) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ٢٨/٣

(٦) هو محمد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب تابعي ثقة روى عن جابر بن عبد الله، معرفة الثقات، ٢٤٩/٢ .

منادٍ من السماء: دنا الرحيلُ فأعدَّ زادًا[١].

وقال هلال بن يساف[٢]: كان الرجل من أهل المدينة إذا بلغ أربعين سنة تخلَّى للعبادة[٣]، وقال النخعي أيضًا: كانوا يطلبون الدنيا، فإذا بلغوا الأربعين طلبوا الآخرة[٤].

يفهم من هذا كله أن دلالات سن الأربعين في الأقوال المأثورة عن السلف دارت حول عدة معانٍ، أبرزها: أنها السنُّ التي يجب على الإنسان فيها أن يأخذ حذره، ويجهّز عذره، وهي السن التي ينبغي أن يتغير الإنسانُ فيها إلى أحسن الخُلُقِ؛ لأنه يصعب عليه تغير خُلُقِهِ بعد ذلك، وهي سِنُّ إعدادِ الزادِ، والاستعدادِ للرحيل، والانقطاعِ للعبادة رغبةً فيما عند الله؛ وهذا كله يستلزم إعمال العقل وتوجيه الفكر، كما أنه يستدعي الحكمة للنظر في كل هذه المعاني.

## ثالثاً: دلالات سن الأربعين في ضوء علم النفس:

تدور القراءات في علم النفس عن هذه المرحلة العمرية –باعتبارها أهم الفترات في حياة الإنسان– حول الوقوفِ مع النفس، وإعادةِ تقييم الحياة، وتحمُّلِ المسئوليةِ على المستوى الشخصي والمجتمعي والمهني، والتفكير بعمق في ماهية الحياة، وما الذي حصده الإنسان وجناه.

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ٢٨/٣.

(٢) هلال بن يساف مولى أشجع، كنيته أبو الحسن، من أهل الكوفة، أدرك عليا، يروى عن بن مسعود الأنصاري ووابصة بن معبد، روى عنه منصور بن المعتمر وحصين بن عبد الرحمن وسلمة بن كهيل، الثقات، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي،٥٠٣/٥، دار الفكر- ١٣٩٥– ١٩٧٥م، ط١، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد.

(٣) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ٢٩/٣.

(٤) السابق نفسه، ٢٩/٣ .

وكل هذه المؤشرات –مع اختلاف صياغتها– تتفق بشكل أو بآخر مع نظرات وأفكار ورؤى الشعراء في الشعر القديم، الأمر الذي يعني أن علماء النفس ربما قد تأثروا بما ورد من تراثنا الشعري العربي القديم.

ولعل أبرز هذه التغييرات هو ما أُطلقَ عليه في علم النفس: "أزمةُ منتصفِ العمرِ" ويمكن اعتبار هذه التسمية هي المعادل الموضوعي لكون سن الأربعين مفترق طرقٍ بين ماضٍ بائد، وحاضر سائدٍ، ومستقبل رابض راصد.

حيث يجلس الإنسانُ ليراجعَ نفسه عما مضى، وهو أمام طريقتين لمواجهة هذه الأزمة، الطريقة الأولى: وهي التي يطلق عليها الطريقةُ السويةُ، وتعني أن الفرد يتقبل ماضيه بكل ما فيه من نجاحٍ أو فشل، وعليه حينئذ أن يقدر إنجازاتِه ويستفيدَ من أخطائه، ولعل فعله هذا يعادل مفهوم الحكمة الذي يتولد عنه الرضا.

أما الطريقة الثانية: فهي الطريقة غير السوية، وتتميز بالشعور باليأس والإحباط بسبب ضياعِ الفرص والإحساسِ بدنو الأجلِ، واليأسِ من تعويض ما فات، بسبب كثرة الأخطاء التي لا يمكن إصلاحها؛ فيقللُ من إنجازاته السابقة ويشعرُ بانعدام قيمةِ حياتهِ؛ ولذا فإنه يعاني اليأس والاكتئاب(١).

ولعل هذه النظرة العلمية لا تختلف كثيرًا عن النظرة الدينية لسن الأربعين، فالنظرة الدينية تحث على التعقل والتدبر والتأمل، وترك التصابي، والحكمة، ومجاراة هذه المرحلة العمرية بلا إفراط ولا تفريط، وربما وافقت الطريقةُ السوية في النظر لهذه المرحلة –عندهم– الطريقة المثالية في القرآن الكريم باعتباره سن الرشد والحكمة وتمام العقل، بينما

---

(١) انظر: علم نفس النمو الرشد والشيخوخة، د. بشرى أيوب شريبه، صـ ٣٦، منشورات جامعة تشرين–كلية التربية، ٢٠١٧م–٢٠١٨م.

وافقت الطريقةُ غير السوية –التشاؤمية– في بعض أشعار هذه المرحلة العمرية التي تنظر إليها باعتبارها مرحلة الشيب، ودنو الأجل، وترك متاع الدنيا، وهجر العذارى، والندم والحسرة.

وعليه؛ فقد بدا بوضوحٍ مدى تأثر علم النفس الحديث بالسمات والضوابط والدلالات التي أصَّل لها القرآنُ الكريمُ وكذلك المرويات الحديثية وأقوال السلف المأثورة، ولكل إنسان أن ينظر لهذه المرحلة كما شاء، ما بين القبول والاستعداد أو الإباء كما فعل الشعراء.

# سِنُّ الأَرْبَعِينَ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ

تأتي هذه الدراسة للكشف عما انطويت عليه نفوس الشعراء تجاه هذه المرحلة العمرية، وما اقترنت به هذه السن من أغراض شعرية، وما دلت عليه من اتجاهات فكرية، وما تضمنته من مظاهر سلوكية على النحو التالي:

## المَبحَثُ الأَوَّلُ

## سِنُّ الأَرْبَعِينَ وَالنُّبُوَّةُ

لقد ثبتَ بما لا يدعُ مجالًا للشك من خلال النصوصِ الصحيحةِ أنَّ الأربعينَ هو سنُّ النبوةِ، وأنَّ النبيَّ ﷺ عندما وصل إلى ذروةِ قوتِه، وغايةِ شبابِه، وتناهَى كمالُ عقله، وتمامُ حكمتهِ، أوحى الله تعالى إليه بالرسالة؛ لأنه ﷺ أعرفُ بالواجب والحق، وأجدرُ بالأمانة والصدق، كما ثبت أن نوحًا عليه السلام أُوحِي إليه في سن الأربعين، ولما كانت النصوص الشعرية المتاحة –فيما بين يدي– تتحدث عن نزول جبريل الأمين على النبي الكريم ﷺ في سن الأربعين؛ اتجه النظر إليها، واقتصر التحليل عليها.

يقول جمال الدين الصرصري[١] في إرهصاتِ بعثتِه ﷺ ومقدماتِ نبوته[٢]:

---

(١) هو يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور، الشيخ الإمام العلامة البارع، جمال الدين أبو زكريا الصرصري الفاضل المادح الحنبلي الضرير البغدادي، معظم شعره في مدح رسول الله ﷺ ، وديوانه في ذلك مشهور معروف غير منكر، يقال إنه كان يحفظ صحاح الجوهري بتمامه في اللغة، وكان ذكيا يتوقد نورا، وكان ينظم على البديهة سريعا أشياء حسنة فصيحة بليغة، وأما مدائحه في رسول الله فيقال إنها تبلغ عشرين مجلدا، وما اشتهر عنه أنه مدح أحدا من المخلوقين من بني آدم إلا الأنبياء، وقد قتل شهيدا رحمه الله تعالى على أيدي التتار، وله من العمر ثمان وستون سنة، البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، ٢١١/١٣، مكتبة المعارف – بيروت.

(٢) ديوان الصرصري، أبي زكريا جمال الدين يحي بن يوسف البغدادي الحنبلي (ت: ٦٥٦هـ)، صـ ٢٨٥، منشورات جامعة اليرموك، تحقيق: د. مخيمر صالح.

لَقَـد شَـرَحَتْ مِنْـهُ المَلَائِـكُ صَـدْرَهُ ... وَكَـانَ لَـهُ مِـنْ أَبْـرَكِ العُمْـرِ أَرْبَـعُ
وَكَـانَ ابْـنَ خَمْـسٍ وَالغَمَـامُ تُظِلُّـهُ ... وَفِي العَشْـرِ نُـوُر الشَّـرْحِ فِي الصَّـدْرِ يَلْمَـعُ
وَفِي الخَمْسِ وَالعِشْـرِينَ سَـافَرَ تَاجِـرًا ... بِمَـــالِ رَزَانٍ لِلمَفَـــاوِزِ يَقْطَـــعُ
رَآهُ بُحَـــيْرًا وَالغَمَامَـــةُ فَوْقَـــهُ ... وَمَيســـرَةٌ وَالحَـــرُّ لِلْوَجْـــهِ يَسْـــفَعُ
وَأَبْصَـرَتِ الكُـبْرَى فَتَـاةُ خُوَيلِـدٍ ... وَمِـنْ فَوْقِـهِ ظِـلُّ الغَمَـامِ مُرَفَّـعُ
إِلَى أَنْ أَرَتْـــهُ الأَرْبَعُـــونَ أَشُـــدَّهُ ... فَأَضْـحَى بِسِـرْبَالِ الهُـدَى يَتَـدَرَّعُ
أَتَـى وَعَلَـى عَطِفَيْـهِ أَفْخَـرُ حُلَّـةٍ ... وَتَاجٌ بِـــدُرِّ المَكْرَمَـــاتِ مُرَصَّـــعُ

يتحدثُ الصرصريُّ في هذه الأبيات عن بعض أمارات بعثته ﷺ، وحتى تمام البعثة في سن الأربعين، فيعرض لحادثة شق صدر النبي ﷺ في الرابعة من عمره، وعندما بلغ من العمر خمسَ سنواتٍ كانت تظلله الغمامُ، كما أنه كان بدرَ التمام في فترة وجوده عند السيدة حليمة السعدية، إذ إنه بشير السعد الساطع، ونور اليقين اللامع، ثم شرح الله صدره وهو في عمر العاشرة كما ذكره ابنُ كثير في تفسيره[1]، ثم يذكر الصرصري أن النبي

(١) إن أبا هريرة كان جريئا على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال يا رسول الله: ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال: لقد سألت يا أبا هريرة، إني في الصحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها قط وأرواح لم أجدها من خلق قط وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلي يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مسا، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه، فأضجعاني بلا قصر ولا هصر، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى فقال: أعد وأسلم، فرجعت بها أعدو رقة على الصغير ورحمة للكبير، تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، ٥٢٥/٤، صحيح ابن حبان بترتيب

ﷺ قد بدأ يتاجر في مال السيدة خديجة رضي الله عنها وهو في الخامسة والعشرين من عمره، ومدى تحمله ﷺ للصعاب في سبيل إخلاصه العمل في هذه التجارة .

كما يُنَوِّهُ برؤيةِ بُحَيْرٍ اليهودي إيَّاه مع عمه أبي طالب وإكرامه لهما(١)، وتعرفِه على النبي ﷺ، وتبشيره ببعثته، ثم يذكر ما ذُهِل ميسرةُ(٢) من مرآه، وهو أن الغمامَ كان يُظَلِّل

---

ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت: ٣٥٤هـ )، ٢٤٢/١٤ ، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤١٤ – ١٩٩٣، ط٢، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دلائل النبوة ، للبيهقي، (ت: ٤٥٨ هـ)، ٥/٢، ( د.ت/ط ).

(١) خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه رسول الله ﷺ في المرة الأولى وهو بن اثنتي عشرة سنة، فلما نزل الركب بصرى من الشام وبها راهب يقال له بحيرا في صومعة له، ونزلوا منزلًا قريبًا من صومعته، فصنع لهم طعامًا حين رأى أن غمامة تظل رسول الله ﷺ من بين القوم، ودعاهم إليه... حتى أجلسه على الطعام والغمامة تسير على رأسه، وجعل بحيرا يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده من صفته، فلما تفرقوا عن طعامهم قام إليه الراهب فقال يا غلام: أسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتني عما أسألك، فقال رسول الله ﷺ :لا تسألني باللات والعزى فو الله ما أبغضت شيئا بغضهما، فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه، فجعل رسول الله ﷺيخبره فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه... فقال الراهب لأبي طالب ما هذا الغلام منك؟ قال أبو طالب: ابني، قال: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا، قال: فابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حبلى به، قال: فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريبا، قال: صدقت ارجع بابن أخيك إلى بلده وأحذر عليه اليهود، انظر: الطبقات الكبرى محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، (ت : ٢٣٠ هـ)، ١٥٣/١ وما بعدها، دار صادر – بيروت.

(٢) ميسرة غلام خديجة، وهو الذي خرج معه النبي ﷺ في تجارة السيدة خديجة عندما أرسلت إليه، فقالت: إنه دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، فإني أعطيك ضعف ما أعطي رجل من قومك، ففعل رسول الله ﷺ وخرج مع غلامها ميسرة حتى قدما بصرى من الشام، انظر: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، أبي القاسم علي بن الحسن

النبي ﷺ من لفح الهاجرة، ويحميه من حرارة الشمس السافرة، فاستوطن عندها الإعجاب، وانزاح السراب، وزال الارتياب.

ولما بلغ النبي ﷺ سنَّ الأربعين، ونزل عليه جبريلُ الأمين؛ تدرَّع ﷺ بدرع الهدى ، وأذاع رسالته وأنشدَ، فارتدى حُلَّةَ الفخر، وتزين بعقد المكرمات المرصَّع بالدُّر .

وبعد هذه الومضة الخاطفة السريعة، التي يغلب عليها النظم وتسجيل الأحداث نستطيع الوقوف على هذه الصورة الخلَّابة البديعة؛ لنرى الألق، ونستنشق العبق في تصوير سن الأربعين في قوله:

**إِلَى أَنْ أَرَتْـــهُ الأَرْبَعُـــونَ أَشُـــدَّهُ  فَأَضْـــحَى بِسِـــرْبَالِ الهُـــدَى يَتَـــدَرَّعُ**

وأول ما يطالعنا فيها التشخيص من خلال الاستعارة في قوله "أرته الأربعون"، فالأربعون إنسان ناصحٌ هادٍ، يُنبِّهُ إلى أشُدٍّ بادٍ، وكأن الأربعين مِرْآةٌ تعكس ما أرادت أن يراه، فرأى فيها ما يسرُّ خاطره، حيث الأشُدّ والقوة الحاضرة؛ فتهيّأ من فوره ليقوم بدوره، وتحمل أمانة الرسالة ليبلغ عن ربِّه الذي غفر له ما تقدم من ذنبه.

ثم انظر إلى الإشراق والوضاءة، فسرعان ما انقشع الظلام وعلت الإضاءة، دلَّ على ذلك كلمة "أضحى" التي توحي بإشراق الشمس، وانطماس ظلام الأمس، وكأن المشْرِقَ اليوم قد جاد بشمسين: شمسِ النهارِ التي يتفضَّلُ بها اللهُ على عباده، وشمسِ النبوة التي أرسلها رحمة إلى خاصته وعُبّاده.

---

ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت: ٥٧١ هـ)، ٦١/٣١٥-٣١٦ دار الفكر – بيروت، ١٩٩٥م، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري.

ثم ما أروع التشبيه البليغ الذي جاء على صورة إضافة المشبه للمشبه به في قوله: "بسربال الهدى"، فالادّعاء متناهٍ، وليس للمبالغة من ناهٍ، وتشبيه الهدى بالسربال الذي يتدرع به صاحبه فيه إبراز للمعقول في صورة المحسوس، وكأن الهدى شيء ماديٌّ ملموس، يأنس به صاحبه ويحمي به جانبه.

والتعبير بالفعل المضارع "يتدرعُ" الذي يفيد التجدد والاستمرار يشي بحركةٍ دائبة، وطمأنينةٍ دائمة، ويُضْفي على الصورة الكلية حيوية ، فهي صورةٌ نابضةٌ بالحركة مليئةٌ بالحياة، جعلت بعثة النبي ﷺ طوقًا للنجاة، فلن يستطيع أحدٌ أن يُحدَّ من عزيمته، أو يفكرَ في هزيمته؛ لأن أسباب الدفع موجودة، مرسلة غير محدودة.

ولا يخفى أثرُ تقديم معمول الخبر على الفعل في قوله: "فأضحى بسربال الهدى يتدرعُ"، حيث قدَّم المتعلقَ وهو الجار والمجرور "بسربال الهدى" على الفعل "يتدرع"؛ للاهتمام والاعتناء بالمتقدم، وهو ما يفيد عُلُوَّ منزلة الهداية، واستحقاقها أن تُقَابَلَ بالعناية.

لقد نجح الصرصري في رسم صورة كلية بديعة، وَشَى مباينها، ودبَّج معانيها، فشخَّصَ سنَّ الأربعين، وجعله هاديًا ومرشدًا للنبي الأمين ﷺ، فالأربعون قد أَرَت النبي ﷺ أشُدَّه، وجعلته مَرْبَعهُ وَوِرْدَه، وألبسته الهدى حصنًا منيعًا، ومقامًا رفيعًا، ورداءً بديعًا، ولم تقتصر الصورة على هذا الحد؛ بل إن امتدادَ الخيالِ في البيت التالي كان أبدعَ، انظر إلى بدر التمام، وغاية المرام في قوله:

**أَتَــى وَعَلَــى عَطِفَيْــهِ أَفْخَــرُ حُلَّــةٍ وَتَاجٌ بِــدُرِّ المُكرمَــاتِ مُرَصَّــعُ**

فسربال الهدى لم يكن درعًا واقيًا فحسب، بل تعدى ذلك لأن يكون حُلَّةً فاخرة يبرزها النبي ﷺ على كتفيه، ويرتديها على عطفيه، ولعل في هذا إشارةً لحال المتلبس

بالطاعة، فهو في حرزٍ تام، لا يُخذلُ ولا يُضَام، نقيُّ السريرة، نافذُ البصيرة، حسنُ المظهر، لطيفُ الجوهر، ناصعٌ أَبرّ، لامعٌ أغرّ .

وهذه الحلّة التي يرتديها النبي ﷺ بارزةٌ غير خافية، يفهم هذا من تقديمه الخبرَ "على عطفيه" على المبتدأ "أفخر حُلَّةٍ" في الجملة الحالية، فأفاد التقديمُ التخصيصَ، وأفاد التخصيص الوضوح بعلو القامة، وارتفاع الهامة، فصارت الحُلَّةُ بارزةً كالعلامة، منيرةً كالشَّامة.

ثم يأتي التَّاجُ المرصَّعُ بِدُرِّ المكرمات، الزَّاهي بمحاسن الصفات، ولا يخفى أثرُ الاستعارةِ في العبارة، فالخصالُ الحميدةُ دَرَرٌ، والصفاتُ الأثيرةُ غررٌ، وكأنها النجومُ الزواهر تلتفُّ حول تاجِ النبوة، والشهبُ المنيرةُ تضيءُ جوانبَ الظلمةِ.

إن سنَّ الأربعين هو الذي أشارَ، ولفت الانتباه وأثارَ، فأزاح الستارَ عن جمال كامنٍ، وضياءٍ ساكن، ورسمَ وعَبّرَ، ونقشَ وصَوّرَ، فظهر النبي ﷺ في أبهى حُلَّة، يرتدي الهدى درعًا، ويتخذ المكرماتِ شرعًا.

وإلى ذات المعنى ذهب صفي الدين الحلي[١]، حيث يقول[٢]:

---

(١) صفي الدين الحلي، هو عبد العزيز بن سرايا الحلي الملقب بصفي الدين، ولد سنة ٦٧٧ هـ-١٢٧٨م، طبع ديوانه في دمشق سنة ١٣٠٠هـ مع القصائد الأرتقيات، والأرتقيات هي قصائد نظمها في مدح بني أرتق الأكراد، طبعت في مصر سنة ١٢٨٣هـ، هاجر من العراق بسبب الحروب والمحن وحط رحاله بفناء ملوك آل أرتق أصحاب ماردين في الجزيرة، ونظم في مدح السلطان نجم الدين أبي الفتح غازي تسعا وعشرين قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتا على حرف من حروف المعجم، يبدأ كل بيت منها بحرف من حروف المعجم وبه يختم، ووسمها بدرر النجور في مدائح الملك المنصور، وهي من ضمن الأرتقيات، وتوفي ببغداد سنة ٧٥٠ هـ- ١٣٤٩م، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، أدورد فنديك، ٣٩١/١، دار صادر – بيروت، ١٨٩٦م .

(٢) ديوان صفي الدين الحلي، صفي الدين الحلي، صـ ٨٠، دار صادر – بيروت .

شَــرَحَ الإِلَــهُ الصَّــدْرَ مِنْــكَ لأَرْبَــعٍ فَــرَأى المَلائِــكَ حَولَــكَ الإِخْــوَانُ
وَحُبِيــتَ فِي خَمْــسٍ بِظِــلِّ غَمَامَــةً لَــكَ فِي الهَــوَاجِرِ جِرْمُهَــا صِــيوَانُ
وَكَــذَاكَ فِي خَمْــسٍ وَعِشْــرِينَ انْثَــنَى نَسْــطُورُ مِنْــكَ ، وَقَلبُــهُ مَــلآنُ
حَــتَّى كَمَلْــتَ الأَرْبَعِــينَ وَأَشْــرَقَتْ شَمْــسُ النُّبُــوَّةِ ، وَانْجَلَــى التِّبْيَــانُ
فَرَمَــتْ رُجُــومُ النَّــيِّرَاتِ رَجِيمَهَــا، وَتَسَــاقَطَتْ مِــنْ خَوْفِــكَ الأَوْثَانُ
وَالأَرْضُ فَاحَــتْ بِالسَّــلامِ عَلَيْــكَ، وَال أَشْــجَارُ ، وَالأَحْجَــارُ ، وَالكُثْبَــانُ

في هذه الأبيات يتحدثُ صفي الدين الحليّ عن بعض معجزات النبي ﷺ، وما حدث له قبل البعثة، ويصورُ حاله كذلك بعد النبوة، فيشيرُ إلى حادثة شق صدر النبي ﷺ في سن الرابعة، ورؤية مَن حوله للملائكة، ثم يذكر تظليل الغمامة له ﷺ من شدة الهاجرة.

ثم نراه يشير إلى قصة نسطورِ الراهبِ[1] وما دار بينهما من حديث، إلى أن أشرقت شمسُ النبوة في سن الأربعين، فكان ذلك إيذانًا بصد الشيطان وسقوط الأوثان، وكأن الأرض قد تنفست الراحة ببعثته ﷺ بأشجارها وأحجارها وكثبانها .

والذي تعنى به هذه الدراسة هنا هو أن سنَّ الأربعين سنُّ النبوة، وقد تجلى ذلك في قوله:

(١) خرج رسول الله ﷺ مع غلام السيدة خديجة ميسرة، وجعل عمومته يوصون به أهل العير، حتى قدما بصرى من الشام فنزلا في ظل شجرة، فقال نسطور الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم قال لميسرة أفي عينيه حمرة؟ قال: نعم لا تفارقه، قال: هو نبي وهو آخر الأنبياء، ثم باع سلعته فوقع بينه وبين رجل تلاح فقال له: احلف باللات والعزى، فقال رسول الله ﷺ : ما حلفت بهما قط، وإني أمر فأعرض عنهما، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال لميسرة: هذا والله نبي تجده أحبارنا منعوتا في كتبهم، الطبقات الكبرى ، ١٣/١.

حَــتَّى كَمَلْــتَ الأَرْبَعِــينَ وَأَشْــرَقَتْ شَمْــسُ النُّبُــوَّةِ ، وَانْجَلَــى التِّبْيَــانُ

إن كمال الأربعين هو أول ما يطالعنا في هذا البيت، والكمال –كما هو معلوم– إزالةُ نقصِ الأوصاف لا الأشخاص، وعليه فإن الوصول إلى سن الأربعين هو كمال الوصف لهذه السن؛ لأن العشرين أو الثلاثين أو أيّ نيفٍ وثلاثين يتصف بالنقص عن الأربعين، ولما كانت الأربعون هي سنُّ النبوة؛ فقد صار الكمالُ كمالين؛ كمالَ الأربعين وكمال استحقاق النبوة –وَفْقَ مراد الله تعالى–.

ومن يمعن النظر في قوله "كملت الأربعين" يستشعرُ –ولو من طرفٍ خفي– أن الأربعين غايةٌ، فيها ترفع الرايةُ، وتتمكن الدرايةُ، وكأن الأربعين آيةٌ، أو كأنها بشيرُ نعمة وعطاء، وتقرُّب وولاء، ففي الأربعين أشرقت شمسُ النبوة، بما تحمله كلمةُ "أشرقتْ" من معاني الفرحة والبهجة بذهاب الظلمة وانزياح العتمة، وربما فيها إيحاء بمعنى الدفء والاحتواء، والنصرة والانتشاء.

وكان للتشبيه البليغ في قوله "شمس النبوة" أثرُه المشرق، وبريقُه المتدفق، حيث شبه النبوة وتبديدَها الكفرِ وعبادةِ الأصنام بالشمس الساطعة وهدمها لكل معالم الظلام، ولا تقتصر هذه الصورةُ على ظاهرها، ولكن من يدلج في أعماقها يجد أن الصورة الحسية تمثل بُعْدًا عقليًا، فما الكفرُ إلا كبرٌ، وما الأصنامُ إلا أوهامٌ، وما العتمةُ والظلامُ سوى أفكارٍ حائرةٍ في عقولٍ جائرة.

كما أن لهذا التشبيه أثرَه في إبراز الصورة، حيث تحول المعقول إلى محسوسٍ؛ ليكون أمكنَ في النفوسِ؛ لأن العقل البشري يؤمن بالشيء الماديّ أكثرَ من إيمانه بنظيره المعنوي.

ومن يستقصي الأفعال الثلاثة التي وردت في البيت (كملت– أشرقت– انجلى) يستشعر معنى التأكيد، فمجيء الأفعال على صورة الماضي يفيد حصولَها مرةً واحدةً.

إن بعثة النبي ﷺ كانت بشيرَ خيرٍ، وإشراقَ شمس النبوة كانت اللوحةَ الكبيرة المضيئة ، وقد مثّل هذا السطوع لحظة فارقة ، فتتبعتْ الشياطينَ الشهبُ الحارقةُ، وتنكست الأصنامُ السامقةُ، واستبشرت الأرضُ أحجارُها وأشجارُها ، وسلَّمت فَرِحةً على هاديها وسيدِها.

## وجملةُ القولِ في هذا المبحث:

لقد شكَّلَ لحنُ الأربعين الآسرُ مع وحي الأمين الجاسرِ لوحةً فنية فريدة، ورسَمَا معًا في عالم التصوير الفني صورًا جديدة، تموج بالتِّيهِ والعجبِ، وتزخر بانزياح الحجبِ، لتكشف عن بدر التمامِ، المؤيّدِ الذي لا يُضامُ، متدرعًا بالهدى، من كل أنواع الردى.

وقد توافق ملازمة سن الأربعين للنبوة فيما سبق تحليله من شواهدَ شعريةٍ مع ما ورد في الحديث الشريف من أن سنَّ الأربعين هي سنُّ نبوة النبي ﷺ

ولعلَّ الصورة –فيما يبدو لي– هي أبرزُ سمةٍ فنيةٍ ولمحة أدبية في هذا المبحث، ولأن الصورة الفنية قد تكون حقيقيةً كما تكون بيانيةً؛ نجد أنَّ الشاعر قد أتى بكلتيهما، وأدار عدسته التصويريةَ عليهما.

ففي حديث كلا الشاعرين عن أمارات بعثته ﷺ لجأ كلٌّ منهما إلى الصورة الحقيقية التي تجسد الواقع وتعرضه في قالب فنيٍّ جماليٍّ، وذلك باستدعائهما اللفظَ الرقيقَ، والأسلوبَ الدقيقَ، وإضفاء مسحةٍ من الأضواءِ التي تزيد فيها مساحةُ الجمال، مع ثباتها على أصلها دون مبالغاتٍ أو خيال، وهكذا كان الحالُ عند الحديث عن شق صدر النبي

ﷺ، وعن تظليل الغمام إياه، وحالِ بُحَيرٍ معه عندما رآه، وتبشيرِه بالبعثة... إلى غير ذلك من أمارات نبوته، وعلامات بعثته ﷺ.

وفي إمكان أي أحدٍ عندما يطالعُ سيرة النبي ﷺ، أو يقرأ في كتب السِّيرِ والتاريخ أن يقف على كل هذه الحقائق، ولكن القدرة الفنية لدى الشاعرين حوّلت الحقيقة المجردة إلى صورة لطيفة، ولمحة موجزة خفيفة، مستعينَين بما يقوي شوكتَها ويقررُ حقيقتها، كالأساليب الخبرية، والتكرار، والتقديم والتأخير، وغيرها من الأدوات التي استغنيا بها عن المبالغات، وأرجآ فيها استخدام التشبيهات والاستعارات.

ولكن عندما قرعت طبولُ الأربعين، وطرق جبريلُ الأمينُ اختلفت الحالُ، وتَغيرَّ المقالُ، وبرزت الصورة الحسيةُ، واختلفت اللغة التصويرية، وتآزرت الصور السمعية والبصرية والشمّية واللمسية؛ لتدبج هذه اللوحةَ الفنيةَ الكبرى مستعينة بفنون البيان، التي تأبى إلا أن تضيف فاعليةً جماليةً بجانب التأثيرات الدلالية، فشُخّصتْ الأربعون كالإنسان، وشُبّه الهدى بالسربال على الأبدان، وتحولت النبوةُ شمسًا، وأعطت الشهبُ للشيطان درسًا، وفاحت الأرضُ سلامًا، ولاقت الأشجارُ والأحجارُ وئامًا...

إن هذا العدولَ التصويريَ من الحقيقي إلى البياني لا يعني أن إحدى الصورتين جاءت ساذجةً، والأخرى جاءت هائجةً، فكلتاهما اتسمت بالألق، وفاحت منهما رائحة العبق، وهذا هو الإبداعُ، ومما يجدر إليه الإلماعُ أنه مع اختلاف الأنواعِ يبقى التأثيرُ والإشعاعُ ... فقط، لكل مقامٍ مقالٌ.

لقد طغت الصورةُ في هذا المبحث على ما عداها، وما عداها كثير وفير، وهو للنظر مستحق وجدير، ولكن يقصر عنه المقامُ، واستحوذت الصورةُ على الكلامِ

## المَبْحَثُ الثانِي

## سِنُّ الأَرْبَعِينَ وَالمُلكُ

إن المراحل العمرية في حياة كل إنسان تمثل منعرجاتٍ يسلم بعضها إلى بعض، والملك الذي يؤتيه الله ﷻ لمن يشاء يمثل خطوة كبيرة في هذه المنعرجات، كما أن له حُظْوةً لدى عامة الناس وخاصتهم، ولأن الملك ريادةٌ وقيادة فأولى الناسِ به هم المتمرسون فيه، العارفون سُبُلَه ودروبه، ولما كانت هذه المؤهلات والصفات لا تتوفر في كل إنسان، لأنها تستلزم العقل والحكمة مع الشدة والجرأة، كما تستلزم الهدوء والروية في غير ضعف مع القوة في غير عنف؛ كانت سنُ الأربعين التي وصفها الله تعالى ببلوغ الأشد وتمام العقل هي أنسبُ المراحلِ العمرية التي يبدأ فيها الإنسان —وفق إرادة الله تعالى— مباشرة الحُكم وممارسة الملك، وقد أوردت بعض كتب السير أن عددًا غير قليل من الأشخاص قد استتب لهم الحكم، واستقر لهم الملكُ في سن الأربعين أو في محيط الأربعين، كعبد الملك ابن مرون، والوليد بن عبد الملك، وأبي العباس السفاح، وأبي جعفر المنصور، وصلاح الدين الأيوبي.

وبعد استقراء وتتبع شاقين وقفت على نموذجين في الشعر العربي القديم يؤيدان ذلك، ويريان أن سن الأربعين هي سن الملك والحكم، وبداية مرحلة بزوغ النجم الذي يشار إليه بالبنانِ، ويعرفه القاصي والداني.

وأول النماذج التي نقف معها ما قاله ذو الرمة[١] في مدح بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري[١] وقد كان واليًا على البصرة، حيث يقول[٢]:

(١) غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود بن حارثة المعروف بذي الرمة، الشاعر المشهور، المتوفى بأصبهان سنة ١١٧ سبع عشرة ومائة، له ديوان شعر، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي (ت: ١٣٣٩هـ)، ٨١٣/٥، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٣ – ١٩٩٢م.

بِــلَالُ ابْــنُ خَــيرِ النَّــاسِ إِلاّ نُبــوَّةً ... إِذَا نُشِّــرَتْ بَــيْنَ الْجَمِيــعِ المَــآثِرُ

تَمَــاكَ أَبُــو مُوسَــى إِلَى الخَــيْرِ وابْنُــهُ ... أَبُــوكَ وَقَــيْسٌ قَبْــلَ ذَاكَ وَعَــامِرُ

أُسُــودٌ إِذَا مَــا أَبْــدَتِ الحَــرْبُ سَــاقَهَا ... وَفِي سَــائِرِ الــدَّهرِ الغُيُــوثُ المَــوَاطِرُ

وَأَنْــتَ امْــرِؤٌ مِــنْ أَهْــلِ بَيْــتِ ذُؤَابَــةٍ ... لَهُــمْ قَــدَمٌ مَعْرُوفَــةٌ وَمَفَــاخِرُ

يَطِيــبُ تُــرَابُ الأَرْضِ أَنْ تَنْزِلُــوا بِهَــا ... وَتَخْتَــالُ أَنْ تَعْلُــو عَلَيْهَــا الْمَنَــابِرُ

وَمَــا زِلْــتَ تَسْــمُو لِلْمَعَــالِي وَتَجْتَــبِي ... جبَــا المَجْــدِ مُــذْ شُــدَّتْ عَلَيْــكَ المَآزِرُ

إِلَى أَنْ بَلَغْــتَ الأَرْبَعِــينَ فَأُلْقِيَــتْ ... إِلَيْــكَ جَمَــاهِيرُ الأُمُــورِ الأَكَــابِرُ

فَأَحْكَمْتَهَــا لاَ أَنْــتَ فِي الْحُكْــمِ عَــاجِزٌ ... وَلاَ أَنْــتَ فِيهَــا عَــنْ هُــدَى الْحَــقِ جَــآئِرُ

إذا اصْــطَفَّتِ الأَلْبَــاسُ فَرَّجْــتَ بَيْنَهَــا ... بِعَــدْلٍ وَلَمْ تَعْجَــزْ عَلَيــكَ المَصَــادِرُ

فالشاعر في هذه الأبيات يثبت كرم أصل الممدوح، ويُقر بخيريتهم، فهم أفضل الناس طُرًّا إلا الأنبياء، أو بعبارة أخرى هم من الأخيار الفضلاء تأتي منزلتهم بعد منزلة الأنبياء، في الوقت الذي يجتهد فيه جميع الناس في نشر مآثرهم، وإذاعة محامدهم، وبلال قد اكتسب هذه المكانة بفضل نسبه، فهو ابن أبي بردة بن أبي موسى بن قيس بن عامر، وكلهم لهم عليه يد، وانتسابه إليهم يُعْلي من شأنه ولابد.

(١) بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، واسم أبي بردة عامر بن عبد الله بن قيس، كان على القضاء بالبصرة ، مشاهير علماء الأمصار، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، ١٥٣/١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٥٩م، تحقيق: م. فلايشهمر.

(٢) شرح ديوان ذي الرمة، الخطيب التبريزي، صـ ٣٦٤، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ط٢، كتب مقدمته وهوامشه وفهارسه: مجيد مطر.

ثم يشرع الشاعر في ذكر مناقبهم فهم الأسود المنافحون عند نزول الكرب، الشجعان المدافعون عند احتدام الحرب، كما أنهم أيادي الحب والحلم في أوقات السلم، كرمُهم سيّالٌ لا ينقطع، وجُودُهم غماماتُ عطاء لا تنقشع، وعلى الرغم من سذاجة التشبيه وعدم الابتكار فيه؛ إلا أن ذلك لا ينفي الشجاعة عنهم، ولا يستلُّ الكرم منهم، ومازالت الصورة ممتدة ومشاعر العجب مُحْتَدة، فبلال من علية القوم ولا شك، مازال ينهل من مآثر أصله وما انفك، يتيه بهم التراب، ويفاخر بهم المحراب، وما أجمل هذا التشخيص، فالمنابر أناسي يختالون بلا تدليس، تزهو ببلال، وكأنه علم فوق الجبال.

ومازالت المعالي له غاية، يسمو إليها ليرفع فوقها الراية، ويحصد ثمار المجدِ، فليس لعزمه حدٌّ، ولعلنا نلاحظ براعة ذي الرمة في رسم الصورة، وكأنه سخر قدراته الإبداعية لتدبيج هذه اللوحة الفنية، وإن غلبت الاستعارة على ما عداها من علوم البيان؛ إلا أنه وشى الصورة ببديع الألوان.

والملاحظ أن هذه الصورة الكلية الفريدة لبلال كانت قبل بلوغه الأربعين، وكأنها تهيئة لما بعده، وتوطئة لبداية سعده، فقد ظل بلال يكتسب حلل المعالي، ويتصف ببليغ المعاني إلى أن بلغ الأربعين؛ فألقيت إليه الأمور الكبيرة، وهي جماهير غفيرة، وحمل فوق كاهله شئون الرعية، فأدار أمورها كأحسن ما تكون الإدارة، وسيطر عليها وامتلك زمامها، لا يحيد عن الحق، ولا يميل عن الصدق، وإذا التبست الأمور، وتداخلت الشدائد، وامتزجت المصائب؛ استطاع أن يفك عُقَدَها، ويُيَسرَ صعبها، فلا تعجزه كثرتها، ولا تثنيي عزمَه شدَّتُها؛ لأنه يعرف المورد والمصدر، ويقف بحكمة على المظهر منها والجوهر.

ولما كان البحث معنيًا بسن الأربعين؛ لزم الوقوف على دلالته في هذه الأبيات، فالأربعون سن الملك والحكم، وبلال لم يسعَ إليه، بل مَثُل الملك طِيّعًا بين يديه عندما بلغ أشده، فقبِلَه بلال ولم يرده، وهو بعد ما شُدَّت عليه المآزر، وبلغ ما بلغ من المفاخر والمآثر؛ أصبح بالملك خبيرًا، وأضحى بالحكم جديرًا.

ولك أن تلحظ أن الأمر لم يكن اختياريًا من خلال تعبير ذي الرمة بالفعل "أُلقيتْ" الذي يدل على وقوع الحدث مرة واحدة، كما أن هذا التعبير يوحي بأن الملك هو الذي اختار بلالًا ولم يختره بلالٌ، وكأن المعالى تعرف أهلها، وتعلم من هم أولى بها.

لقد تفاجأ بلالٌ بالأمانة الكبيرة، والأمور العظيمة الكثيرة، فاستطاع ترويضها، وأعمل فيها حكمته فأحكم قبضتَه، ووضع أسس سياستِه.

ولهمزة التعدية في قوله "فأحكمتها" ما لها من آثر بارز في تمكنه في الحكم، ومعنى الصيرورة والتحول مقترن بهذه الهمزة، وكأن الملك كان فيه شيء من عدم الإحكام قبل مجيء بلال، وبمجيئه صار محكمًا، وكأنه تحول من معنى الحكم المجرد إلى الحكم المحكم، الذي يخضع لضوابط سياسية جديدة، وهي سياسة رشيدة غير شديدة.

كما أن الجملة الحالية "لا أنت في الحكم عاجز ..." أكدت هذا الإحكام، وأشارت إلى سياسة السلام، ثم انظر إلى ذكر المسند إليه "أنت" وتكراره في قوله "لا أنت ...، ولا أنت"، ولا شك في أن كل هذه المظاهر الأسلوبية قد ساهمت في إحكام صورة الملك، وإنْ اصطبغت بصبغة سردية طغت فيها اللغة الوصفية.

وإلى نفس المعنى السابق يذهب ابن شهاب(١)، حيث يقول(٢):

أَيُّهَــا المَلِــكُ بَــلْ الفَلَــكُ الــذِي ... أَنْقَــذَ الأُمَّــةَ مِــنْ طُوفَانِهَــا

بِبُلُــوغِ الأَرْبَعِــينَ اسْــتَحْكَمَتْ ... قُبَّــةُ المُلْــكِ عَلَــى أَرْكَانِهَــا

هَــا إِلَيــكَ ابْنَــةَ فِكْــرٍ أُهْــدِيَتْ ... تَسْــحَبُ الــذَّيلَ عَلَــى سَــحْبَانِهَا

قَــدَّمَتْهَا العُــرْبُ مِــنْ عَــدْنَانِهَا ... الغُــرُّ وَالشُّــمُّ بَــنِي قَحْطَانِهَــا

فِئَــةٌ مَفْخَرُهَــا إِخْلَاصُــهَا ... لَــكَ فِي السِّــرِّ وَفِي إِعْلَانِهَــا

اسْتَعَاضَــتْ بِــكَ عَــنْ أَقْيَالِهَــا ... وَبِأَرْجَائِــكِ عَــنْ أَوْطَانِهَــا

وَلَــكَ اليَــومُ عَلَــى شُــبَّانِهَا ... مَــا لآبَائِــك مِــنْ شِــيبَانِهَا

جاءت هذه الأبيات في تهنئة الملك محجوب علي بادشاه(٣) بمناسبة بلوغه الأربعين، ويتوجه ابن شهاب إليه بالنداء ليقبل بذهنه عليه ويستمع إليه، ثم يُضربُ عن وصفه بالملك، وينعته من جديد بالفلك، فهو مدار النجوم، يلتف الجميع حوله ويحوم،

(١) هو أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عبد الله بن عيدروس بن علي بن محمد بن شهاب الدين العلوي الحسيني الحضر موتي، إمام فاضل، وزاهد عابد، ولد بحضرموت، قرأ العلم على أفاضل بلاده، وطاف الأقطار إلى أن قدم الحجاز، ثم ذهب إلى الهند واجتمع بعلمائها، ثم رحل إلى مصر، ومنها إلى حضرموت، وله شعر عذب رشيق، يتنوع برياض أساليبه كل معنى أنيق، وكانت ولادته في حدود الخمسين والمائتين والألف تقريباً، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار (ت: ١٣٣٥هـ)، ١/٢٤١، (د.ت/ط).

(٢) ديوان ابن شهاب، أبي بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين، صـ ٢٣٦، مكتبة التراث – دار التراث اليمني، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م، ط٢.

(٣) حكم علي بادشاه ديار بكر بعد وفاة سونتاي نوين عن نحو المائة سنة، انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقريزي (ت:٨٤٥هـ-١٤٤١م)، ١٦١/٣، دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م ، ط١، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

ولم لا وهو الذي أنقذ الأمة من أعدائها، وقد استوت له الأمور والحكم ببلوغه الأربعين، فتثبتت أركانُ ملكه، واستعلت قبةُ حكمه.

ثم يسترسل ابن شهاب في مدحه فيقول لقد مُنِحْتَ رأيًا ثاقبًا، ونظرًا إلى الأمور نافذًا، فجاءت لك الحكمةُ طيّعَةً تختال كالعروس التي تُزّفُّ إلى ونيسها في ليلة عُرْسها. فالعرب قد قَلَّدتك أمورها، واستأمنتك على تسييرها، وهم جميعًا قد أجمعوا على ذلك في اليمن وفي شبه الجزيرة العربية.

إن ولاءهم وإخلاصهم لك دون غيرك، وهم يفخرون بذلك في سرهم وعلانيتهم، إنهم قد نسوا ملوكهم أو تناسوا وهم في كنفك، واستعاضوا عن بيوتهم وأوطانهم بنُزُلِكَ، وأنت اليوم تتفضلُ على شبابهم بكرمك، كما كان آباؤك يدلّون عليهم بعطاياهم.

والنداء في قوله "أيُّها الملك" يفيد التعظيم، والتبجيل والتفخيم، فالمنادى ملك وفير العطاء، بل فلك من أفلاك السماء، فهو حامي الحمى الذي ذاد عن الأمة وأنقذها من الغرق في خضم طوفان الاعتداء، فأباد الأعداء، وحقق النصر والاستعلاء.

وما أجمل التعبير بالطوفان!، فالكلمة تشعر بالموت القادمِ، حيث لا عاصمَ، وتشي بكثرة العدد والعتاد، كما أن استعارة "الطوفان" للأعداء، جعل الصورة متحركة صاخبةً؛ فجنود الأعداء محتشدة غاضبةٌ، تنهل كالسيل من كل جانب، لا ينجو من بأسها شجاعٌ ولا هارب.

ثم انظر إلى الفعل "استحكمت" ودلالة الزيادة في مبناها، هذه الزيادة التي تدل على الطلب الذي لم يتحقق إلا ببلوغ الملك الأربعين، فقُبّةُ الملك طلبت التمكين، فهذا أوانها، وحُقّ لها أن يتحقق نوالها.

والتشبيه البليغ في "قبة الملك" يدل على تشخيص المعنوي، فالملك كالقُبّةِ السامقة، والأبنية الشاهقة، وهذا كله لم يكتمل إلا ببلوغ الأربعين.

وقوله "ابنة الفكر" كناية عن الرأي وهي كناية عن صفة قريبة، تدل على استحقاقه إياها، وبناء الفعل "أُهديت" للمجهول لإبراز الحدث وهو الهدية أكثر من تسليط الضوء على فاعله، فالتركيز منصب على الهدية ذاتها.

وكلمة "هدية" مشعرة في ذاتها باتفاق الود، وطوفان الحب الذي يسري من أفئدة الناس إلى الملك.

والهدية عروس تختال في زيّها، تجره خلفها، فما أثمنها من هدية! لقد لعبت الاستعارة دورًا هامًا في إبراز قيمة الهدية بتشخيصها في أبهى صورة، لتكون الهدية متفرِّدة غير مكرورة، وقد جعل الشاعر صوره تموج بالحركة، فجيش الأعداء طوفان في حالة فوران وثوران، والملك شامة شائقة، وبناية شاهقة، والهدية عروس في كامل زينتها، وتمام هيئتها.

كما استطاع الشاعر أن يكون صورة كلية تزخر بالصوت واللون والحركة من هذه الصور المفردة المتفرقة ليرسم لوحة التهنئة بأدق تفاصيلها.

وكانت "سن الأربعين" التي استدعت كلَّ هذا التزيين هي المناسبة، لأن الملك قد جاوزها أو تلبس بها، فكأن المناسبة جديرة بالاحتفاء والاحتفال، وبديع الكلام وبليغ المقال.

**وجملةُ القولِ في هذا المبحث:**

كما كانت سنُ الأربعين هي سنُ النبوة؛ كانت كذلك سن الملك والحكم، فهي سن الأشُدّ والفتوة، كما أن الأربعين هي سن النضج والحكمة والتجربة؛ لذا يكون

الإنسان أقدر على اتخاذ القرارات الصائبة، فتكون القيادة وظيفته الأساسية، والملك صفته الرئيسية.

وقد جاءت النماذج السابقة مؤكدة لهذه الفكرة، حيث رأى الشعراء أن سن الأربعين هي سن استحكام الملك، واستحقاق الإدارة؛ ولعل في هذا توافقًا تامًا مع ما ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من أن الأربعين هي سن الملك والرشد، وقد جاء علم النفس تابعًا لهما عندما أشار إلى أن الأربعين هي سن تحمل المسئولية على المستوى الشخصي والجمعي.

ولعل أبرز ملامح التحليل الفني في هذا المبحث إلى جانب الحضور القوي للصورة هو "الحبكة" في ترابط الأحداث وتشابكها وترتيبها، والعلاقة بين المقدمات والنتائج، فانتظام كل هذه الأشياء في عقد فريد ألقى بظلاله على كمال الصورة وتماسكها، وبدهيٌ أنني لا أقصد بالحبكة هنا "الحبكة الدرامية" ولكنني استعرت اللفظة للدلالة على تماسك الصورة، وإبراز أوجه التشابه في هذا التماسك في النموذجين السابقين.

ففي النموذج الأول الذي يمدح فيه ذو الرمة بلالًا بدأ ببيان منزلته ومنزلة أهله، إذ جعلهم أفضل الناس فيما عدا الأنبياء، وكذلك فعل ابن شهاب إذ صرح ببيان منزلة الممدوح من خلال ندائه بالملك، ووصفه بالفلك، ولعل هذا يعادل العرض أو البداية في مكونات الحبكة ثم تأتي العقدة أو الحدث الصاعد المتطور الذي تتأزم فيه الأمور بشكل بطيء أو سريع فيما يعرف بالذروة، فنجد ذو الرمة يجسدها في الكروب العظيمة والملمات "إذا ما أبدت الحرب ساقها" وعلى نفس الترتيب يفعل ابن شهاب "حيث البركان الثائر المتمثل في الأعداء أو الطوفان" ثم يأتي الحدث النازل الذي يهدف إلى حل

العقدة أو الأزمة، وقد عبر عنه ذو الرمة بقوله "أسود" في إشارة إلى قدرتهم على تجاوز الأزمة، بينما عبر عنها ابن شهاب بقوله "أنقذت الأمة".

وأخيرًا تأتي النهاية التي تسير أيضًا في تسلسل منطقي بداية من استحقاق الملك واستحكام أركانه ببلوغه الأربعين ونهاية بإذعان الجميع لهذا الاستحقاق بلا شقاق.

وقد تمثلت بداية النهاية عند ذي الرمة في قوله:

**إِلَى أَنْ بَلَغْتَ الأَرْبَعِينَ فَأُلْقِيَتْ إليكَ جماهيرُ الأمورِ الأكابرُ**

وعلى نفس النمطية عبر ابن شهاب عن ذلك بقوله:

**ببلوغ الأربعين استحكمت قبة الملك على أركانها**

ثم تأتي نهاية النهاية بإذعان الناس بالإجماع، بعد ما عاينوا هذا الاستحقاق بالأبصار والأسماع، وقد عبر ذو الرمة عن ذلك بقوله:

**فَأَحْكَمْتَهَا لاَ أَنْتَ فِي الْحُكْمِ عَاجِزٌ وَلاَ أَنْتَ فِيهَا عَنْ هُدَى الْحَقِ جَآئِرُ**

وعبر عنها ابن شهاب بقوله:

**ها إليك ابنة فكر أهديت تسحب الذيل على سحبانها**

ولست أدّعي أن هذه حبكة درامية بمفهومها الأدبي، ولكن استوقفني أمران لأجنح لهذا المسمى: **الأمر الأول**: هو التسلسل المنطقي في النموذجين محل الدراسة، و**الأمر الآخر**: هو الاتفاق الكبير بين الشاعرين في هذا التسلسل على نفس النمط تقريبًا.

ولذلك كانت الحبكة – إن صحَّ التعبير هي أبرز ملمح في هذا المبحث "الأربعين والملك".

## المبْحَثُ الثالثُ

## سنُ الأربَعِينَ والحِكْمَةُ

تُعَدُّ الحكمةُ من أبرز المعاني الشعرية التي لاقت رواجًا كبيرًا في الشعر العربي، كما أن غرض الحكمة يمثل لَبِنَةً من لبناتِ صرح الشعر العربي خاصةً، والتراث الأدبي على وجه العموم.

والحكمة بما تحمله من تجريب وتدريب تعكس النضج العقلي للشاعر فضلًا عن النضج الفني؛ حيث إنها تكون نتيجةً طبيعيةً لمواقف حياتيةٍ تعرَضّ لها الشاعرُ، وتأمُّلٍ عميق في صفات الجنس البشري، وما تحمله من قيم دينية وأخلاقية وفلسفيةٍ واجتماعيةٍ وتاريخية.

وقد لاقى الشعراء في الحكمة تربة خصبة وملاذا آمنا لإبداء آرائهم في شتى شئون الحياة، فتحدثوا عن الخير والشر، والنفع والضر، والحب والكره، والأمل والألم، والقوة والضعف موجِّهين بالإرشادِ والنصحِ، مؤثرين السلم والصفحَ.

فالحكمة إذًا تقوم بدورٍ تربوي رقابيّ توجيهيّ، سواء أكان هذا التوجيه معبرًا عن صوت ضمير الشاعر إلى نفسه أم إلى غيره.

ولما كان لسن الأربعين خصوصيتُه الثابتةُ في القرآن الكريم، والحديث الشريف والعقل البشري الجمعي؛ كان بالحكمة أولى وأجدر.

ومن نظر إلى سن الأربعين هذه النظرة، فأولئك هم الذين أعطوا الأمور مقاديرها دون تكلف أو شطط، ودون استخفافٍ أو غلط.

ومن النماذج التي ارتبطت فيها الحكمة بسن الأربعين ما جاء في ديوان الأقيشر الأسدي(١)، حيث يقول(٢):

وَصَـــهْبَاءَ جُرْجَانِيَّـــةٌ لَمْ يَطُـــفْ بِهَـــا ... حَنِيـــفٌ وَلَمْ تَنْغَـــرْ بِهَـــا سَـــاعَةً قِـــدْرُ

أَتَانِي بِهَـــا يَحْـــيَى ، وَقَـــدْ نِمْـــتُ نَوْمَـــةً ... وَقَـدْ غَابَـتِ الشِّـعْرَى(٣)، وَقَـدْ جَـنَحَ النَّسْـرُ(٤)

فَقُلْـــتُ اصْـــطَبِحْهَا أَوْ لِغَـــيْرِيَ فَاسْـــقِهَا ... فَمَـــا أَنَا بَعْـــدَ الشَّـــيْبِ وَيْبَـــكَ(٥) والخَمْـــرُ

تَعَفَّفْـــتُ عَنْهَـــا فِي العُصُـــورِ الـــتِي خَلَـــتْ ... فَكَيْـــفَ التَّصَـــابِي بَعْـــدَمَا كَـــلأَ العُمْـــرُ

إذا المَـــرْءُ وَفَّى الأَرْبَعِـــينَ وَلَمْ يَكُـــنْ ... لَـــهُ دُونَ مَـــا يَأْتِي حَيَـــاءٌ وَلاَ سِـــتْرُ

فَدَعْـــهُ وَلاَ تَـــنْفَسْ عَلَيْـــهِ الـــتِي أَتَـــى ... وَإِنْ جَـــرَّ أَسْـــبَابَ الحَيَـــاةِ لَـــهُ الـــدَّهْرُ

---

(١) الأقيشر الأسدي، وهو المغيرة بن عبد الله بن معرض بن عمرو بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار، وذكر ابن قتيبة أنه المغيرة بن الأسود بن وهب، وأجمعت المصادر على أنه يكنى أبا معرض، والأقيشر لقب غلب عليه لأنه كان أحمر الوجه أقشر أبرص، ومع ذلك كان يهجو البرصان بالبرص، ويغضب إذا قيل له الأقيشر، وهو شاعر إسلامي من المعمرين، كانت ولادته في الجاهلية، وقال الذهبي: أنه ولد في حياة النبي ﷺ، وقد توفي في الكوفة نحو سنة ثمانين للهجرة، وقيل: أنه مات في آخر خلافة عبد الملك بن مروان أي نحو سنة ٨٦هـ، انظر: ديوان الأقيشر الأسدي، صـ ١٣-١٥، دار صادر –بيروت ، ١٩٩٧م، ط١، صنعة: د. محمد علي دقة .

(٢) ديوان الأقيشر الأسدي، صـ ٦٨-٧٠.

(٣) الشعرى: كوكب، مختار الصحاح ١٤٣/١، مادة: (شعر).

(٤) النَّسْر: كوكَب في السَّماء مَعروف، تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، ٢٠٨/١٤، دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين، مادة: (نسر)

(٥) ويبك: ويحك، السابق، ٣٧٠/٤، مادة: (ويب)

نجد أن الشاعر قد بدأ بوصف الخمر التي يتعفف عن مزاولتها المسلم الحنيف، فهي خمرة جرجانية من حيث الأصل يطلب المتيمون بها الوصل، كما أنها لم توضع على قدر لتغليَ فيقل تأثيرها ومفعولها، هذه الخمرة —التي هذا وصفها— قد جاءه بها يحي ليشربها، ويستلذ بها، وقد أخذته سنة من النوم، في الوقت الذي غارت فيه الكواكب، وغابت المواكب، وهجع الناس للنوم، وانتهت أعمال اليوم؛ فأيقظه ليروي منها غلته، ويحتسي منها طاقته، إلا أن الشاعر قد رغب عنها وتعفف، ونظر إليه وتأفّف، وقال له إنني ألتمس سبل الفلاح، فاشربها أنت —إن شئت– في الصباح، أو فاسقها لغادٍ أو رائح، فإن أنا فعلت بعد ما اعتلاني الشيب، فقد تلبست بكل شائن وعيب.

لقد أبتها نفسي في ريعان الشباب، وتعففت عن شربها مع الأتراب، فأنى ليّ التصابي بعدما أنتهى العمر؟ أم تحسب أنني رجل غَمَرُ؟

وهنا يعلو صوتُ الحكمة والعقل، ويطابق المضمون الشكل؛ فيقول: إن الإنسان إذا بلغ أربعين عامًا ولم يردعه وازعٌ ديني، أو سمتٌ خُلقي، ولم يتشح الحياءَ لباسًا، واتّبع وسواسًا خناسًا، ولم يستتر؛ فدعه ولا تنتظر منه أن يعتبر، ولا تنقم منه ما يفعل؛ لفرط ما يجهل، وإن أقبلت عليه الدنيا بكل جاه ... فليس له من ناه.

ولن أقف طويلًا مع وصف الخمر، ولا غياب النّسْر، ولا الحوار الدائر، ولا الشيب الجائر، فكل هذه الأشياء ليست معنية في هذا المبحث الرشيد، وسأذهب مباشرة إلى الحكمة والقول السديد ففي قوله:

**إذا المَـرْءُ وَفَّى الأرْبعِـينَ وَلَمْ يَكُـنْ لَـهُ دُونَ مَـا يَأْتِي حَيَـاءٌ وَلاَ سِـتْرُ**
**فَدَعْـهُ وَلاَ تَـنْفَسْ عَلَيْـهِ الـتي أتَـى وَإنْ جَـرَّ أسْـبَابَ الحَيَـاةِ لَـهُ الـدَّهْرُ**

تطالعنا الفطرة النقية والنفس السوية، محكمة شرطها بـ "إذا" التي تجزم بوقوع الجوابِ، ولا تدع للشك بابًا، ثم انظر إلى الفعل "وفّى" وتشديدَه، ليدل على بلوغ الإنسان سن الأربعين ثم تمكينه ومن ثَمَّ تمكين الفعل وتقريره، والتأكيد عليه ببلوغ المرء أربعين سنة وأنه لم ينقص من عمره شيءٌ.

وكذلك تقديم المسند "له" على المسند إليه "حياء– ستر" يوحي بأنه محط الاهتمام، ومنتهى الكلام، وتخصيصه دون غيره ممن لم يبلغ هذه السنَّ، فضلًا عن التشويق إلى ذكر المتأخر.

وانظر إلى الفعل المضارع "يأتي" الذي يدل على التجدد والاستمرار، ليشعر بحالة التلبس بالمعاصي والإصرار، وكذلك حذف مفعوله، لأن الأصل "يأتيه" وفيه دلالة كذلك على عموم جنس الآثام والمحرمات، فهو لا يُصِرُّ على ذنب واحد بل ذنوب، ولا يكتفي بندبةٍ واحدة بل ندوب.

وكذلك تنكير كلمتي "حياء" و"ستر" للدلالة على العموم والشمول، وكأن ابن الأربعين الذي لا يرعوي عن الذنوب لم يخطر له على بالٍ، ولا دار في خلده ولا جالَ أن يستحي ولو بقدرٍ –أي قدر– قبل أن يمر العمر، أو يستتر بستار –أيَّ ستار– ليتقي لهيب النار.

ثم انظر إلى النصح والإرشاد، والأمر بالابتعاد وهو الغرض الأساسي من الأمر، وكأنه ينصح بالابتعاد عن الجمر، وهل يصلح العطارُ ما أفسد الدهر!

وما زال النصح والإرشاد في النهى "ولا تنفس عليه التي أتى"؛ فقد طار به العمر وما زال يوهم نفسه بأنه فتى، وهو في سكرته لا يعرف كيف مرّ العمر ولا متى... مثل

هذا لا تنتظر منه صلاحًا، ولا ترجو له فلاحًا، وإن جرّت إليه الدنيا –كالعروس– أذيالَها، فنفسه لم تختر طريقًا هو أولى لها.

وعلى الرغم من وضوح الحكمة، ومجيئها بطريقة مباشرة ولغة مختارة، إلا أنه لا يمكن إغفال دور الاستعارة "وإن جرّ أسباب الحياة له الدهرُ"، فالدهر يجرُّ، ويأتي بما يَسُرُّ، ولا يخفى ما لهذا المجاز من أثر في استخلاص المواعظ والعبر، فإن تجسيد الدهر وجعله كالخادم المطيع، الذي يلبي كل أمرٍ يتلقاه، يوحي بإقبال الحياة، ليستغرق الإنسان المغيب في كل ما يتمناه، حتى يستيقظ على سراب، وليس له غير المرارة من شراب.

وهذه الحكمة على ما فيها من النصح والإرشاد في الأمر والنهي، إلا أن مفادها أنه على الإنسان إذا بلغ الأربعين أن يكف عن الهوى والغواية والبغي، وأنه إن لم يكن له من نفسه وازعٌ، فليس له عن مهاوي الهلكة من دافعٍ ... الأمر كذلك وإن بدا بخلاف ذلك.

إن أجَلَّ ما يستوقفني في هذه الحكمة هو أنَّ الشاعر بدأ بالفعل قبل القول، وبالتطبيق قبل التنظير، فتعفف عن الصهباء، رغم شدة الإغراء، ورفض أن يغشى العيب في شبابه والشيب، فأبى ما يشينه وجنح إلى ما يزينه، وهذا أدعى لقبول حكمته، والإنصات إلى كلمته، على غرار قول الشاعر(١):

**وإنك إذ ما تأتِ ما أنت آمرٌ به تُلْفِ من إياه تأمرُ آتيا**

وهو يشير إلى أنه ينبغي على الإنسان أن يفعلَ أولًا ما يأمر به؛ حتى يلقى أمره استجابة لدى الآخرين.

(١) لم أقف على قائله، انظر: شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية (لأربعة آلاف شاهد شعري)، محمد بن محمد حسن شُرَّاب، ٣٢٨/٣، مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٧م، ط١.

ومن النماذج التي وردت فيها الحكمة مرتبطة بسن الأربعين ما نجده عند دعبل بن علي(١)، حيث يقول(٢):

**الجَهْـلُ بَعْـدَ الأَرْبَعِـينَ قَبِـيحُ ، فَـزَعِ الفُـؤَادَ وَإِنْ ثَنَـاهُ جُمُـوحُ**
**وَبِـعِ السَّـفَاهَةَ بِالوَقَـارِ والنُّهَـى ثَمَـنٌ لَعَمْـرُكَ – إنْ فَعَلْـتَ – رَبِـيحُ**
**فَلَقَـدْ حَـدَا بِـكَ حَـادِيَانِ إِلَى البِلَـى، وَدَعَـاكَ دَاعٍ لِلرَّحِيـلِ فَصِـيحُ**

إن سَوْءَةَ الجهل صريحة، وسَوْرَتَه قبيحة، وهو ٠مشين في كل حين، وأشدُّ قبحًا بعد الأربعين، والجهل بمعنى السفه والاعتداءِ وباءٌ، فيجب على صاحبه أن ينتهيَ عنه، ويفرَّ منه، وأن يمنع لُبَّه وقلبه عن التمادي فيه، وعن أن يجاريه، ولو استعصى ذلك؛ لأن نهايته المهالك.

وسَوْرةُ الشباب –عادة– تكون مانعة عن العدول عن الجهل، وعلى صاحبه حينئذٍ أن يأخذ نفسه بشيء من الحزمِ، متدرعًا العزمَ، مشهرًا سيف العقل، متخففًا من كل ثقل، فإن هو فعل فقد فاز فوزًا عظيمًا، وفتح الله له فتحًا مبينًا.

(١) دعبل بن علي بن رزين بن عثمان الخزاعي، ولد من أسرة عرف رجالها بالعلم، فقد كان والده شاعرًا، ولد في سنة ١٤٨هـ، وعاش متنقلًا بين بغداد والكوفة كانت له منزلة رفيعة في العلم والأدب والشعر، واشتغل برواية الحديث وكان من شيوخه الإمام مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وكان شاعرًا مكثرًا، توفي على أرجح الأقوال سنة ٢٤٦هـ، انظر: ديوان دعبل بن علي الخزاعي، صـ٩-١٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ط١، شرحه : حسن حمد

(٢) ديوان دعبل بن علي الخزاعي، صـ٥٧ .

إن الاتسام بالحكمة والوقار هو علامة الانتصار، والتسلح بالعزيمة والإصرار، وهو سمة الاحترام والإكبار، خصوصًا إذا زحف الشيب، وأصبح مصير الإنسان في علم الغيب.

والجهل والشيب حاديان يسوقان الإنسان إلى الهلاك والفناء، خاصة إذا بدأ صوت الموت يعلو بالنداء، فإما إلى سعادة وإما إلى شقاء.

لقد بدأ الشاعر حكمته بالأسلوب التقريري المباشر "الجهل قبيح"، وهذا الأسلوب الصريح يعمل في النفس عمله، إذ يفيد تأكيد الحكمة وتثبيتها، وتقرير معناها وتوضيحها، لأنه يعرض حقيقة مباشرة صريحة.

ثم انظر إلى الاحتراس في قوله "بعد الأربعين" لأن الجهل وإن كان مستقبحًا على الدوام، إلا أنه بعد الأربعين يستوجب الملام؛ لأن هذه السن هي سن الحكمة والتعقل، والتأمل والتدبر.

ويبدأ الشاعر بهزّ المشاعر وتحريكها فيأتي بالأمر (زَعْ – بِع) الذي يفيد كل منهما الإرشاد والنصح، ليبتعد الإنسان عن كل شَيْنٍ وقبح، ولعل العلةَ من حذف جواب الشرط في قوله: " وإن ثناه جُمُوح " هي قطع المسافة على التردد، فلا يتردد الإنسان في كف هواه ومنعه، فضلًا عن أن هذا الحذف داخل في الإيجاز للعلم بالجواب، والتقدير: وإن ثناه جموح فَزَعِ الفؤاد.

وقد أضفى الطباق بين "السفاهة والوقار" توضيحًا وإفصاحًا، فشتان بين ما تبيعُه وما تشتريه، وقد عبر عن الربح بالصفة المشبهة "ربيح" للدلالة على ثبوت الكسب الصريح.

وكان للصورة بالغ الأثر في هذا المعنى، فالسفاهةُ سلعةٌ رخيصة تباع وتشترى، وهذا التجسيم في "السفاهة والوقار والنهى" من شأنه تثبيت المعنى في النفس، خاصة وقد تحول إلى شيء مُحَسّ.

لقد استطاع الشاعر اختزال حكمته بشكل مباشرٍ وصريح عندما قال: "الجهل يعد الأربعون قبيح".

وعلى نفس المنوال سار أبو العلاء المعري(١)، حيث يقول(٢):

**خَـبِرَ الحَيَـاةَ شُـرُورَهَا وسُـرُورَهَا مَـنْ عَـاشَ عِـدَّةَ أَوَّلِ المُتَقَـارِبِ**

**وَافَى بِـذَلِكَ أَرْبَعِـين ، فَمَـا لَـهُ عُـذْرٌ ، إِذَا أَمْسَـى قَلِيـلَ تَجَـارِبِ**

إن أبا العلاء المعري يقرُّ بأن من عاش أربعين سنة فقد درس الحياة وعالجها، ورأى بنفسه فيها الصالح والطالح، والضار والنافع، والخير والشر، وهو بذلك ليس له عذرٌ بعد

(١) هو أَبُو العَلاَءِ أَحْمَدُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ سُلَيْمَانَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ سُلَيْمَانَ بنِ أَحْمَدَ بنِ سُلَيْمَانَ بنِ دَاوُدَ بن مُطَهِّرِ بن زِيَادِ بنِ رَبِيْعَةَ بنِ الحَارِثِ بنِ رَبِيْعَةَ بنِ أَنْوَرَ بنِ أَرْقَمَ بنِ أَسْحَمَ بنِ النُّعْمَانِ ... ابنِ حِمْيَرِ بنِ سَبَأَ بنِ يَشْجُبَ بنِ يَعْرُبَ بنِ قَحْطَانَ بنِ عَامِرٍ – وَهُوَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ – القَحْطَانِيُّ، التَّنُوْخِيُّ، المَعَرِّيُّ، الأَعْمَى، اللُّغَوِيُّ، الشَّاعِرُ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ السَّائِرَةِ، وَالمُتَّهَمُ فِي نِحْلَتِهِ. وُلِدَ: فِي سَنَةِ ثَلاَثٍ وَسِتِّيْنَ وَثَلاَثِ مائَة. وَأَضرَّ بِالجُدَرِيِّ وَلَهُ أَرْبَعُ سِنِيْنَ وَشهر؛ سَالتْ وَاحِدَةٌ، وَابيضَّتِ اليُمْنَى، فَكَانَ لاَ يذكُرُ مِنَ الأَلْوَانِ إِلاَّ الأَحْمَر، لثَوْبٍ أَحْمَر أَلبسوهُ إِيَّاهُ وَبَقِيَ خَمْساً وَأَرْبَعِيْنَ سَنَةً لاَ يَأْكُل اللَّحْم تَزُهُّداً فَلسفِيّاً. وَكَانَ قَنوعاً مُتَعَفِّفاً لَهُ وَقْفٌ يَقومُ بِأَمرِه، وَلاَ يَقبلُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئاً، وَمَاتَ فِي أَوَائِل شَهْر ربيع الأَوَّل مَنْ سَنَة تِسْعٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَأَرْبَعِ مائَة، وَعَاشَ سِتّاً وَثَمَانِيْنَ سَنَةً، سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت:٧٤٨هـ) ، ١٨/٢٤-٢٧، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ط٣، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٢) ديوان اللزوميات "أبي العلاء المعري"، ١/١٣٥، التوفيق الأدبية – مصر، ١٣٤٢هـ، تحقيق: أمين عبد العزيز الخانجي.

ذلك إن لم يتعلم من الحياة دروسها، ولم يسلك دروبها، كما أنه لا يعذر –إن وافى الأربعين– بندرة دُرْبته أو قلة خبرته، فالأربعون شمس ساطعة، ونجوم لامعة، وكما قال الشاعر(١):

**ما ضَرّ شمس الضحى في الأفق ألا يرى ضوؤها من ليس ذا بصرِ**

والبيتان السابقان على ما فيهما من إلغاز وإغراب –شأن أبي العلاء في شعره– إلا أنهما يقرران أن سن الأربعين هي سنُّ الكمال والعقل والرشاد، والإصابة والسداد.

فأما الإلغاز ففي قوله "من عاش عدة أول المتقارب"، وهو يقصد بذلك بحر المتقارب:

**فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن**

ولما كانت "فعولن" تتكون من خمسة أحرف، وتترد ثماني مرات؛ فكان حاصل ضرب خمسة في ثمانية هو أربعون (٥×٨=٤٠).

وبعيدًا عن الإلغاز والتلاعب بالألفاظ، فإن الشاعر –وهو المجرب الحكيم– قد أتى بملحمة فريدة، وحكمة سديدة، وعبارة رشيدة، فالمرء قد يعذر قبل الأربعين، فإن هلت عليه فلا عذر.

وانظر إلى إيثاره الفعل "خَبرً" دون "عَلِمَ"؛ لأن الخبر هو العلم بكنه الأشياء على حقائقها ، ففيه معنى زائد على العلم، ولا يشترط ذلك في العلم؛ فقد لا يدرك العالم خبايا الأمور وأسرارها على الرغم من علمه بظاهرها(٢) .

(١) ينسب إلى: علي الغراب الصفاقسي .

(٢) انظر: معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، صـ ٩٣، دار العلم والثقافة – القاهرة، تحقيق: محمد إبراهيم سليم.

ثم قدم المفعول به "الحياة" على الفاعل "مَنْ" للتأكيد على أهميتها، اعتناءً بشأنها، فهي محل الاختبار، ومجال الاختيار، أما فاعل "خَبِرَ" وهو "من" فهو زائر سريع العبور، زائل قليل الحضور.

ثم ذكر بعدها "الشر والخير" على سبيل بدل الاشتمال اعتناء بهما دون غيرهما من شؤون الحياة، فالأول نذير معاناة، والثاني سبيل نجاة، ولعله قدم الشر على الخير لشيوعه وانتشاره.

ثم عبر بالاسم الموصول "من" لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام، فهذا أدل على تقرير غرضه وهو إسناد الأحكام السابقة لسن الأربعين.

ثم انظر إلى الفعل "وافى" ودلالة المفاعلة فيه، وكأن كلًا منهما (الإنسان وسن الأربعين) يسيران منذ أمد لهدف واحدٍ وهو أن يلتقيا، وقد حدث.

وفي قوله "فما له عذر" سَوَّغ النفيُ الابتداءَ بالنكرة، وقدم الخبر "له" على المبتدأ "عذر" لإفادة التخصيص، وقصر الحكم عليه، وجاء بكلمة "عذر" نكرة لإفادة العموم والشمول، والمعنى أن من بلغ الأربعين فليس له ذريعة يتذرع بها أو عذر –أيّ عذر– يعتذر به إن كانت تجاربه قليلة، وخبراته ضئيلة.

لقد استطاع المعريّ أن يجعل سن الأربعين –بأدوات بسيطة– هو سن كثرة التجارب لا قلتها، ونضج الأفعال لا كلالتها ... ومن لم يتعلم درسَه فلا يلومنّ إلا نفسَه.

وعلى نفس الدرب السابق يسير الأبيوردي[١] ، يقول[١] :

(١) الأبيوردي أبو المظفر محمد بن أبي العباس أحمد بن إسحاق ابن أبي العباس الإمام، لقب في صدر ديوانه بفخر الرؤساء، ولد ونشأ في كوفن، سمع من أبي القاسم إسماعيل الجرجاني، ونقل عنه الحفاظ الأثبات

وَهــــاأَنا نَهْنَــــهَ[٢] مَــــا أَحْـــذَرُهُ مِــنْ غُلــوائي[٣] ، فَالنَّــذيرُ قَــدْ أَتَــى

وَمَـــنْ يُنــاغِ[٤] الأَربَعِـــينَ عُمْــرُهُ وَيَحْتَضِـــنْهُ غَيُّـــهُ فَـــلا اهْتَـــدَى

لقد كان الشاعر يخشى سرعة الأيام ومرور العمر، ولكنه لا يستطيع أن يوقف عقارب الساعة، وليس معه من زاد أو بضاعة، فضاع منه العمر أو أضاعه، فحذرُه من الشيب لم يمنع زحفه، وأتاه ما لم يرحم ضعفه، ومعلوم أنه قد يُؤتى الحَذِرُ من مأمنه، فأتاه نذير الشيب، وأعلن نفير الحرب على عمر الشباب الذي ليس له إياب، وإذا لاطف عمرُ الإنسان سنَ الأربعين واقترب منه ولاعبه، واحتضنه هواه وغيُّه وجاذبه، فقد اعتدى وما اهتدى.

إن هذين البيتين –على وجازة ألفاظهما وقلتها– يحفلان بحكمةٍ نفيسة لكل إنسان، مفادها: ما تخشاه آتٍ، هرم عاتٍ، فإذا بلغتَ الأربعين فادخل في زمرة الصالحين، تَحظَ بالهداية، وتبتعد عن الغواية.

ونلاحظ أن الشاعر قد بدأ بـ "ها" التي تفيد التنبيه؛ ليدل على أهمية ما يأتي بَعْدَها، ثم يأتي بضمير المتكلم المنفصل "أنا"؛ لتكون حكمته التالية حكمةَ متمرسٍ أريب، مبنيةً على الدربةِ والتجريب.

---

الثقات، كان إمامًا في كل علم وفن، وكان حسن السيرة جميل الأمر يفتخر بنسبه، مات مسمومًا بأصفهان سنة ٥٠٧هـ، انظر: ديوان الأبيوردي أبي المظفر محمد بن أحمد بن إسحاق (ت: ٥٠٧ هـ)،١/٩-٢٠، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، ط٢، تحقيق: عمر الأسعد.

(١) ديوان الأبيوردي، ١/ ٦٢٢.

(٢) النهنهة: الكف، تقول : نهنهت فلانا إذا زجرته فتنهنه أي كففته، لسان العرب،١٣/٥٥٠، مادة: (نهنه)

(٣) غلواء الشباب: أوله، لسان العرب، ١٢٣/١٥، مادة: (غلو)

(٤) نَاغاهُ مُناغاةً : دَاناهُ، تاج العروس،٤٠/١١٤، مادة: (نغي)

ثم انظر إلى الفعل "نهنه" وتكرار حروفه على اللسان عند النطق بها؛ ليبين محاولاته المستمرة في منع وصول الشيب، وهو الأمر الذي كان يخشاه، ولكنه وقع وأصبح الشيب يغشاه، بعدما كان حريصًا على بقاء شبابه وقوته وفورته.

والنذير بمعنى المنذر –وهو الشيب أو الكبر– أتى على وجه الثبوت واليقين والتحقيق، دلّ على ذلك دخول قد على الفعل الماضي "أتى".

ثم يأتي أسلوب الشرط الذي افتتحه بـ "مَنْ" التي تستعمل للعاقل، وكأنه يقول إن العاقل الحق هو الذي يأخذ حذره إذا ناغى عمرُه سنَ الأربعين، وانظر إلى كلمة "يناغي" التي تُشْعِر بالاهتمام، فاللطف في الحديث والمداعبة إنما تتأتى من محب حريص، دلّ على ذلك أيضًا الفعل "يحتضنه" الذي يشي بالود وكمال الحب.

وما ألطف المجاز في هذه الصورة المركبة فشخص العمر عمومًا والأربعين خصوصًا من جهة وشخص الغيّ كذلك من جهة أخرى ... هذا بحسب الصورة التي دلت عليها الاستعارة المكنية، ولكن يبدو لي –والله أعلم– أن الاستعارة تبعية في الفعل يناغي والفعل يحتضن، إذا المقصود بالمناغة القرب، وبالاحتضان التلبُّس في الغي، وسواء أكانت الاستعارة المكنية هي المرادة أم التبعية هي التي تخدم المعنى ومفاده، فهذا التنوع قد أحدث ثراءً في الصورة وجعلها فريدة غير مكرورة.

وعلى ذلك فإن الإنسان إذا ناهز الأربعين وما زال في غيه وضلاله؛ فعليه أن يؤب إلى ربه، ويسير على دربه؛ ليبتعد عن الضلال، ويفوز بعقبى المآل، وللمقابلة بين (غيه – اهتدى) أثرها في وضوح المعنى وإبرازه، فإما غيّ بلا اهتداء وإما هداية بلا إغواء؛ دل على ذلك "لا" النافية، أو إن شئت فقل "لا" الفاصلة بين الغواية والهداية.

وقد تعددت النماذج والشواهد التي تدل على ارتباط الحكمة بسن الأربعين مما يعجز عن حصرها البحث، وربما عني البحث ببعض النماذج للشعراء المتأخرين لثرائها الدلالي، وأخَّر نماذج أخرى لشعراء متقدمين من باب الإحالة والاسترشاد وإن كانت جديرة بالنظر والفحص[١].

---

(١) من ذلك قول حسان بن ثابت :

وَكُــدتُ غَــداةَ البَــينِ يَغلِبُــني الهَــوى ... أُعــالِجُ نَفســي أَن أَقــومَ فَأَركَبــا
وَكَيــفَ وَلا يَنســى التَصــابِيَ بَعــدَما ... تَجــاوَزَ رَأسَ الأَربَعــينَ وَجَــرَّبا
وَقَــد بانَ مــا يَأتي مِــنَ الأَمــرِ وَاكتَسَــت ... مَفارِقُــهُ لَــوناً مِــنَ الشَــيبِ مُغــرَبا

ديوان حسان بن ثابت، حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد (ت: ٥٤ هـ)، ص٢٦، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ط٢، شرحه وقدم له: عبدأ مهنا.

ومثله قول ابن المعتز:

فَتَنَــت قَلبَــكَ العُيــونُ المِــلاحُ ... وَاغتِبــاقٌ بِقَهــوَةٍ وَاصــطِباح
وَقُــدودٌ كَــأَنَّهُنَّ غُصــونٌ ... وَخُــدودٌ كَأَنَّهــا التُفّــاحُ
أَنــتَ فِي الأَربَعــينَ مِثلَــكَ فِي العِــش ... ريــنَ قُــل لِي مَــتى يَكــونُ الفَــلاحُ

ديوان ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيدي (ت: ٢٩٦هـ)، صـ ٣٣٦، مطبعة الإقبال – بيروت، ١٣٣٢هـ، فسر ألفاظه: محي الدين الخياط، طبع بمناظرة: عبد الباسط الأنسي.

ومثله أيضًا قول ابن سهل الأندلسي:

فــلا الزجــرُ ينهــاني، وإن كــان مُرْهِبًــا، ... ولا النُّصْــحُ يَثْنِيــني، وإنْ كــان ناصِــعًا
فيــا مَــن بنــاءُ الحــرف خــامَرَ طبعَــه! ... فصــارَ لتــأثير العوامــل مانِعَــا
بلغــتَ نصــابَ الأربعــين فزكِّهــا ... بفعــلٍ تُــرى فيــه مُنيبًــا ورابِعــا
وبادِرْ بــوادي الســمّ إنْ كنــتَ راقِيًــا ... وعاجِــلْ رُقــوعَ الفَتْــقِ إنْ كنــتَ راقِعــا
فمــا اشــتبهتْ طُــرْقُ النجــاة، وإنمــا ... ركبــتَ إليهــا مِــن يَقِينــك طالِعــا

ديوان ابن سهل، قدم له: د. إحسان عباس، ص٢٣٦، دار صادر – بيروت، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

**وجملةُ القولِ في هذا المبحث:**

تُعَدُّ الحكمة خلاصة لتجارب الحياة، وعصارة لشتى أنواع المعاناة؛ ولذا فإن صوت العقل فيها واضح، ونغم الأناة والرويّة منها صادح، كان هذا جليًا في النماذج التي تم عرضها في هذا المبحث.

والنصح والإرشاد من باب الحرص على المتلقي هي السمة الغالبة التي يمكن اختزال كل السمات فيها؛ لأن الحكمة مجردة من الأهواء الشخصية، والرغبات النفسية، وإنما هي مبنية على المعاينة والمعايشة، وليدة من رحم التجريب دون سابق استعداد أو ترتيب.

وقد توافق ملازمة سن الأربعين للحكمة -فيما سبق تحليله من شواهد شعرية- مع ما ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من أن سن الأربعين هي سن الرشد والعقل والحكمة وشكر النعمة، ولعل علم النفس جاء متأثرًا بالقرآن الكريم والحديث الشريف في ذلك حيث جعل سن الأربعين هي سن التفكير بعمق في ماهية الحياة داعيًا إلى التأمل في هذه المرحلة.

إن الحكمة تتسم بالحضور والواقعية بعيدة كل البعد عن الترتيب المنطقي، والعمق الفلسفي؛ ولذا فإنها تتسم بالوضوح في كل شيء، فهي واضحة في ألفاظها وعباراتها وأفكارها ومعانيها، وإنما اكتسبت الحكمة هذا الوضوح من واقعيتها، واكتست حلة الظهور لأنها بنت بيئتها.

ولو نظرنا إلى النماذج السالفة لوجدنا أن اللغة فيها مُوَجَّهة إلى صلب المعاني، تحن إليها، وتدل عليها، فالألفاظ في جملتها ساذجة بسيطة، تؤدي معانيها في سلاسة متناهية متجاورة أو منفردة مُرَصَّعة بشيء من الحلى اللفظية كالطباق الذي ورد في غير

مناسبة بدون تعَمُّل أو تكلف. أما من حيث دلالتها فقد جاءت حقيقية الدلالة في الغالب الأعم.

وأسلوبها– فيما بين يدي من نماذج– أشبه بالأسلوب الحجاجي الذي يستعين بالأدلة والبراهين، وقد جاءت النتائج فيها مترتبة على المقدمات.

والأسلوب أيضًا متنوعٌ دائرٌ بين الإنشائية والخبرية، فالإنشائية لتحريك الذهن، وإعمال العقل ودفع الرتابة، والخبرية لتسوق المسلمات، وتحدد الاتجاهات، وتثبت المعاني، وتقرر المباني. وقد أدّى كل أسلوب دوره المنوط به على الوجه الأكمل فجاءت الحكمة في هذا المبحث على الوجه الأمثل.

ونلاحظ قلة الخيال والصور، إذ الأصل فيها النصح واستخلاص العبر، وهما في الحقيقة أوقع وللعقل أقنع، وفي الذوق أمتع، وهذا لا يعني أن واقعية الحكمة تتنافى مع فُسْحَة الخيال، ولكن لأن لكل مقام مقال؛ غلب الأسلوب الحقيقي على ما عداه؛ ولذا فإن الصور قد قلَّت، وسُحُبُ الحقيقة استهلت.

لقد اتفق الشعراء على أن الأربعين هو سن الحكمة، وأنه ينبغي للإنسان إذا ناهزه أو تجاوزه أو تلبس به أن يُصلحَ خريطة حياته، وأن يسير على دروب الهدى، وأن يدع النفس والهوى.

## المَبْحَثُ الرابعُ

## سنُّ الأرْبَعِينَ وهَجْرُ العَذَارَى

من المعلوم أن الغالب على الطبيعة البشرية أنها تحب أن تستوفي نصيبها كاملًا من الحياة؛ ولعل هذا هو السر في أن الناس يقتفون أثرها؛ فيميلون حيث مالت، ويعرضون حيث أعرضت، وحال بعض النساء لا يختلف كثيرًا عن ذلك، فتراهن يُقْبِلن على الرجل ما أقبلت عليه الدنيا، ويُعْرِضن إذا ما هي أعرضت عنه.

ولما كان سن الأربعين نذيرَ شيب، ورسولَ عيبٍ عند البعض، استحال وصلهن هجرًا ووفاؤهن غدرًا، وإقبالهن صدودًا، وإطلاقهن سدودًا.

وقد حفظ لنا الأدب العربي الكثير من الأشعار التي تتحدث عن تغير موقف المرأة تجاه الرجل إذا مسه الشر، أو لحق به الضر، أو إذا ساءت حاله، وجهل مآله.

ولعل أبرز ما تحفظه لنا كتب الأدب في هذا الباب ما ورد عن علقمة الفحل(١) حيث يقول(٢):

فَــإِن تَســـأَلوني بِالنِســـاءِ فَــإِنَّني ... خَبـــيرٌ بِأَدواءِ النِســـاءِ طَبيـــبُ
إِذا شــابَ رَأسُ المَـرءِ أَو قَـلَّ مالُـهُ ... فَلَـيسَ لَـهُ مِـن وُدِّهِـنَّ نَصـيبُ

---

(١) هو علقمة بن عبدة بن ناشرة بن قيس بن عبيد بن ربيعة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم، الشاعر المشهور، أحد شعراء الجاهلية، وقيل له الفحل من أجل رجل آخر يقال له علقمة الخصي، المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (ت: ٣٧٠هـ)، ١/٦٨، (د.ت/ط).

(٢) شرح ديوان علقمة الفحل، الأعلم الشنتمري، صـ ٢٤-٢٥، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م، ط١، قدم له ووضع هوامشه: د. حنا نصر .

ونجد مثل هذا المعنى عند شعراء آخرين من أمثال عمر بن أبي ربيعة[١]، وابن المعتز[٢]، وما رواه الأنباري[٣]، وأبي بكر بن زهر الأندلسي[٤] ... وغيرهم.

ولما كانت هذه الدراسة معنية بسن الأربعين على وجه التحديد؛ اقتصر هذا العنصر على دراسة هجر العذارى في هذه السن، للوقوف على معاناة الشعراء النفسية والعاطفية، ومحاولة إبراز الصراع الداخلي الذي يعانيه الشاعر حال وقوفه بين الماضي والآني تارة، وبين الآني والآتي تارة أخرى.

ومن ذلك ما نجده عند السري الرفاء[١] حيث يقول[٢]:

---

(١) يقول في ذلك:

**رَأَيــنَ الغَــواني الشَــيبَ لاحَ بِعارِضــي فَأَعرَضــنَ عَــنّي بِالخُــدودِ النَواضِــرِ**

ديوان عمر بن أبي ربيعة، صـ ١٩٥، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤١٦هـ -١٩٩٦م، ط٢، قدم له: د. فايز محمد.

(٢) يقول في ذلك :

**لمــا رأت شــيبًا يلــوح بعارضــي صــدّت صــدود مغاضــب متحمّــل**

المحاسن والمساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقي (ت :٣٢٠هـ)، صـ ٣٥٠، دار صادر – بيروت (ت، ط)

(٣) يقول في ذلك:

**رأيــت الشــيب تكرهــه الغــواني ويُخْبِــرْنَ الشــبابَ لمــا هَوينــا**

الأمالي، أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (ت: ٣٥٦هـ)،١١٢/١، دار الكتب المصرية،١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦م، ط٢، رتبها: محمد عبد الجواد الأصمعي.

(٤) يقول في ذلك:

**إنّي نظــرتُ إلى المِــرآة إذ جُلِيَــتْ فــأنكرَتْ مُقلتــايَ كــلَّ مــا رَأتَا**
**كــانَ الغَــواني يَقُلــنَ يا أَخــي فَقَــد صــارَ الغَــواني يَقُلــنَ اليَــومَ يا أَبَتــا**

ابن زهر (الحفيد) وشاح الأندلس، د. فوزي سعد عيسى، صـ١٣٩، منشأة المعارف – الإسكندرية، (ت، ط)

يُـــرَوِّعُ هَجْرُهـــا قَلْبـــاً مَرُوعَـــا ... صَـــدِيعُ الشَّـــيْبِ يَمْلَـــؤُهُ صُـــدُوعَا
أَرَتْهَـــا الأَرْبَعُـــونَ هَشِـــيمَ رَوْضٍ ... وَقَبْـــلَ الأَرْبَعِـــينَ رَأَتْ رَبِيعَـــا
هَزِيـــعُ شَـــبِيبَةٍ طَلَعَـــتْ عَلَيْـــهِ ... كَوَاكِبُـــهُ فَرصَّـــعَتِ الهَزِيعَـــا[٣]
أَلا فَاعْجَـــبْ لِمَـــا صَـــنَعَ الغَـــوانِي ... فَقَـــدْ أَفسَـــدْنَ بالغَـــدْرِ الصَّـــنِيعَا
كَفَـــرْنَ بِـــذَلِكَ الصَّـــنَمِ المُفَـــدَّى ... وَ كُـــنَّ لَـــهُ سُـــجُوداً أَوْ رُكُوعَـــا

صديعُ الشيب يملأ القلبَ !، وهجرها يقتلُ الحبَ، وقد استحال وصلها صدًّا، وقربها بعدا، حيث كان كل منهما ينعم بوصل بديع، ويعيش في روض الربيع، عهد المودة بينهما صادق لا يخون، إلى أن أطلت برأسها الأربعون!

وكأن ربيع العمر كان قبل الأربعين، وببلوغها أطلت عجاف السنين، فتحولت جنة العمر إلى جحيم، ونُضرة الروض إلى هشيم.

وما أبدع هذا التشخيص في قوله "أرتها الأربعون"، وما أجمل الدور الذي أدته همزة التعدية الداخلة على الفعل، ثم يصور الشاعر حاله بعدما بلغ الأربعين، فكواكب الشيب

(١) هو أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي الرفاء الموصلي، الشاعر المشهور، كان في صباه يرفو ويطرز في دكان بالموصل، وهو مع ذلك يتولع بالأدب وينظم الشعر ولم يزل حتى جاد شعره ومهر فيه، وقصد سيف الدولة ابن حمدان بحلب ومدحه وأقام عنده مدة، ثم انتقل بعد وفاته إلى بغداد، وللسري ديوان شعر، وكانت وفاته في سنة نيف وستين وثلثمائة ببغداد، وقيل: توفي سنة اثنتين وستين وثلثمائة، وقيل: سنة أربع وأربعين وثلثمائة، انظر: وفيات الأعيان و انباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان(ت: ٦٨١هـ)، ٢/٣٥٩-٣٦٢، دار الثقافة – لبنان ، تحقيق: إحسان عباس.

(٢) ديوان السري الرفاء، ٢/٣٧٦، دار الرشيد للنشر — منشورات وزارة الثقافة والإعلام الجمهورية العراقية —سلسة كتب التراث، ١٩٨١م ، تحقيق: د. حبيب حسين الحسني.

(٣) الهزيع : صدر من الليل، لسان العرب، ٨/٣٧١، مادة: (هزع).

–وهي الشعرات البيضاء في رأسه– رصَّعت هذا السواد البهيم، فتداخل البياض مع السواد، واتسم ليله بالأرق والسهاد.

ثم هو يعجب من صنيعها وهجرها له، بعدما كان مطمعًا تهفو إليه نفسها، ومغنمًا يرشدها إليه حسها، ولكنها أفسدت بهجرها الحبَّ، وارتضت له قاعَ الجُبّ، وها هي تهدم بيديها صنمها الذي عبَّدَتْ له الطريق وعَبَدَتْهُ، وقد كانت راهبةً في محرابه، قائمة وقانتة، راكعةً وساجدة.

لقد استطاع الشاعر أن يرسم صورة كلية كاملة، وأجاد في وشي أجزائها التي تتألف منها، فشخّصَ القلب، وجَسَّد الشيب، وجَسَّم الحب؛ بعد أن حوّل الهجر إلى كائن مخيف يهابه القلب، وإذ به يُصَدَّعُ القلبَ ويترك به آثار الشقوق والندوب، حتى لكأن القلب وهو شخص قد اشتعل رأسه شيبًا من شدة خوفه ووجله، وما كان كل هذا ليحدث لولا أن الأربعين ذهبت إليها، وأطلقت فيها يديها؛ لتريها تبدّلَ الحال، وتغير المآل الذي أحدثته فبعدما كان الشاعر أثيرًا عند محبوبته، بات أسيرًا لدى شيبته، فتغيرت صورته وتبدلت هيئته، وبعدما كان ينعم بريعان الشباب أصبح هشيمًا تذروه الرياح؛ فليله طويلٌ ليس له صباح! ومن كانت هذه حاله فالهجر والصد مآله.

إن هذه الصورة وحدها كفيلة بإثبات أثر سن الأربعين على الشاعر من وجهة نظر محبوبته التي وجدت من المبررات ما يشفع لها هجرها.

ثم إن الشاعر ينقلنا إلى ريشة أخرى من ريشات تصويره، يؤكد من خلالها على معنى طالما تغنى به الشعراء، وهو صورة الظلام الدامس الذي تلمع فيه الأشكال البيضاء، من شدة الضياء التي تعتريها، فشيب شعراته يبرق وسط هذه اللمة السوداء، كالكواكب اللامعة في ظلمة السماء.

ولعل هذه الصورة وهي متأخرة مع صورة الهشيم المتقدمة، سببان للهجر بعد هذا العمر، لقد استطاع الشاعر أن يضفي لمسة جمالية، وفاعلية دلالية، من خلال انتقاله السلس بين صوره الشعرية، وتوظيف كل صورة بمقدار حاجته إليها، فاستعان بالمجاز في كل لمحة، حتى جعل سن الأربعين ناطقة، وجعلها محطة فارقة من محطات الحياة.

وبالنظر إلى أسلوب الشاعر الذي اعتمده نجد أنه اعتمد الأسلوب الخبري التقريري الذي يبين حالة الحزن التي سيطرت عليه بعدما داهمته الأربعون أو داهمها، اللهم إلا أسلوب إنشائي وحيد في قوله "فأعجب لما صنع الغواني" يدل على شدة حيرته وسط هذا الكم الكبير من الألم الذي يعتصر فؤاده بسبب هجر محبوبته التي هجرته بالتبعية لبلوغه سن الأربعين!!!

ثم نلمح التكرار في هذه الصورة البديعة في أكثر من موضع كما في قوله:

(يروع – مروعا) – (صديع – صدوعا) – (هزيع – الهزيعا) – (صنع – صنيعا)، ولعل هذا التكرار إلى جانب كونه يعبر عن عناية الشاعر به أكثر من غيره، إلا أنه من زواية أخرى له دلالات نفسية عميقة، فالسوداوية طاغية على كل هذه الكلمات المكررة، وكأن التكرار باب من أبواب التنفيس والصراخ بما يعتمل في صدره، ويضرم نار اللوعة في قلبه وهذه الصورة وإن بدت متعددة المعاني، إلا أنها تعود في النهاية لمعنى واحد، وهو أثر سن الأربعين على الشاعر.

ومن ينعم النظر في هذه الصورة الكلية يستطيع الوقوف للوهلة الأولى على عاطفة الحزن التي أراقها الشاعر بين ثناياها، فالحزن بادٍ في كل ألفاظها تقريبًا باستثناء كلمة (ربيعا) التي جاءت لتبرز المفارقة بين هيئتين آثر الشاعر إبرازهما؛ لتكتمل لوحة التأمل التي تفضي بدورها إلى التألم.

ويذهب الشريف المرتضي[١] إلى ما ذهب إليه السري الرفاء فيقول[٢]:

عَـلَّ البخيلـة أن تجـودَ لعاشـقٍ ... مـازالَ يقنـعُ بالخيـال الطـارقِ
صـدّتْ وقـد نظـرت سـوادَ قُرونها ... عـنّي، وقـد نظـرت سـوادَ مفـارقي
وتعجَّبـتْ مـن جـنحِ ليـلٍ مظلـمٍ ... أنَّ رمَـي فيـه الزَّمـانُ بشـارقِ[٣]
وسـوادِ رأسٍ كـان رَبْـعَ أحبَّـةٍ ... رجـعَ المشـيبُ بـه طلـولَ مُفـارقِ
يا هنـدُ إن أنكـرتِ لـونَ ذوائـبي ... فكمـا عهـدتِ علائقـي وطرائقـي
ووراءَ مـا شَـنِئَتْهُ عينُـك ضَـلَّةً ... مـا شـئتِ مـن خُلُـقٍ يسـرُّك رائـقِ
أوَمـيضُ شـيبٍ أم ومـيضُ بـواترٍ ... قَطَّعْـنَ عنـد الغانيـاتِ علائقـي
وإذا الأربعـين تكاملـتْ ... للمـرءِ فهْـوَ إلى الـرَّدى مـن حـالقِ

ما زال العاشق —على كبره— يرجو، ومازال آثارَ شبابه يقفو، وكأنه في سِنَةٍ يصحو منها ويغفو، يطلب فيها المحال، ويرقب رمقة الخيال، ولكن هيهات! فقد صَدَّت محبوبته وأوصدت قلبها عندما نظرت إلى بياض شعره، وسواد شعرها، ثم استغرقت في العجب

(١) هو أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي النقيب، وهو أخو الرضي أبي الحسن الذي تضمن كتاب اليتيمة شعره، وقد انتهت الرياسة ببغداد إلى المرتضى في المجد والشرف والعلم والأدب والفضل والكرم، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت: ٤٢٩هـ)، ٥/٦٩، الكتب العلمية - بيروت/لبنان - ١٤٠٣هـ١٩٨٣م، ط١، تحقيق: د. مفيد محمد قمحية.

(٢) ديوان الشريف المرتضي، د. محمد ألتونجي، ٢/٤١٣-٤١٤ ، دار الجيل — بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ط١ .

(٣) الشارق: قرن الشمس، لسان العرب، ١٠/١٧٤، مادة: (شرق).

والحيرة، حيث كان شعره حتى وقت قريب فاحما كجنح الليل المظلم، فمتى رماه الزمان بهذا الشيب المؤلم؟

لقد كان وقت شبابه الدال عليه سواد رأسه كالربع العامر المأهول، ولكنه سرعان ما تحول بالشيب إلى قفارٍ أو طلول.

تذكري يا هندُ أنني على العهد باقٍ مهما تغيرت ذوائبي وتبدل لون شعري، لا أنكث وعدا، ولا أغيرّ ودا، وإنَّ خلف هذا البياض الحسي ما يسرك من الرياض الخلقية الرائقة، والصفات المعنوية السامقة.

ويبدو أن نفس الشاعر قد تأذت من هذا الشيب وضجرت، فيتساءل متعجبًا أهذا وميض شيب أم وميض سيوف قاطعة قطعت العلاقات بيني وبين الغانيات؟ ولكنها أحكام الدهر، وصروف الليالي، فإن الإنسان إذا بلغ أربعين سنة كان قريبًا من الموت ولا فوت!

ولعلّ "علَّ" التي افتتح بها الشاعر تشي بما يعانيه، وتخبر بما يلاقيه من ألم الهجر، ومرّ العمر، فقد افتتح الشاعر قصيدته بالرجا، وختمها بالردى، فما الهول الذي لاقاه؟ وما اليأس الذي عاناه؟ ربما بنظرة أسلوبية بسيطة، وومضة خاطفة نستطيع الوقوف على إجابة السؤال، فكلمة "البخيلة" توحي بشح المشاعر؛ ولذا فهو يرجوها أن تجود، وأن تدفع الهجر عن المشاعر وتذود.

ثم انظر إلى هذه الوفرة الوفيرة من العشق التي عبر عنها بتنكير كلمة "عاشق" للدلالة على التفخيم والتهويل، وهذا أول ملمح من ملامح المعاناة، عشق كثير عظيم يقابله شح وبخل، وعلى الرغم من ذلك فالشاعر "مازال" مستمرًا في عطائه قانعًا بما يجود به خيالها.

وانظر إلى موضع الفعل صدّت وترتيبه بعد كل هذا الرجاء، والرضا بما يجود به الخيال؛ لتدرك حجم المعاناة التي يعانيها الشاعر، فهي لم تدع للوصل موضعًا، ولم يقع منها الشوق موقعًا.

وانظر كذلك إلى أثر تكرار الفعل "نظرت" الذي يدل على قوة حضور الحاسة الباصرة، ورغبتها في التأكد مما رأت، وكأنها عقدت مقارنة فورية بين كلا السوادين، فارتاعت مما رأت وتعجبت من سرعة تحول السواد المطبق إلى نهار مشرق، وكأن هذا التحول قد حدث في لمحة بَيْنٍ، أو طرفة عَيْنٍ.

كما أن التعبير بالأفعال الماضية (صدت – نظرت – تعجبت – رمى) كلها تدل على تحقق الوقوع، فلا مجال للرجوع، وهو ما يتلاءم مع الصد الذي جنحت إليه بعكس الأفعال المضارعة (تجود – يقنع) التي تدل على التجدد والاستمرار، وما بين رجائه في تجدد وصلها، وصدها التام وإعراضها، تكبر الهُوّة، وتتسع الفجوة، وتتأكد الصدمة.

والنداء في قوله "يا هند" يشعر بالتودد إليها، ويوحي بالحنو عليها، ثم يعقبه بأسلوب شرط "إن أنكرت لون ذوائبي ..." في محاولة منه لفرض الانسجام والاتساق، وبث القبول والوفاق، فلو أخذكِ الذهول من هول مرآكِ فإنني ما زلت معك كما أنا بسجاياي وأخلاقي.

ومما يلفت الانتباه في هذه المقطوعة كثرة الجموع (قرون–مفارق– ذوائب–علائق –طرائق–بواتر– ليالي) وكلها تدل على المبالغة في الكثرة، إذ جاء بها على صيغة الجمع الأقصى –غالبًا–، وكأنه يعمد إلى تكثير أدلته على حبها علّها تشفع، أو يرق له قلبها فتنصف وتسمع.

وفي البيت الأخير الذي يشتمل على سن الأربعين شرطٌ آخر أداته "إذا" التي تدل على تأكيد وجوب وقوع الجواب عند تحقق الشرط، فالمرء أقرب إلى الموت قولًا وفعلًا إذا تكاملت له الأربعون، وهذا الأسلوب الأخير إلى الحكمة أقرب، وكان الشاعر فيه واقعيًا ولم يُغْرِب.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن الشاعر وشى صورته بألوان بيانية مختلفة، وكانت ريشة الصورة الحسية البصرية غالبة على ما عداها، ولك أن تنظر إلى "السواد" وتكراره في أكثر من صورة لفظية فعبر عنه صراحة "السواد" و "سواد رأس" و "لون الذوائب" و "الليالي" و "جنح ليل مظلم"، كما أنه عبر عن البياض كذلك في غير موضع، فعبر عنه مجازًا في: "سواد مفارقي" و "شارق" و "المشيب" و "وميض"

وقد خلق هذا الحشد الكبير لألفاظ المتضادين مفارقة لفظية ظاهرة، ومفارقات معنوية خفية، وكأنها ثنائية البعد والقرب أو الوصل والهجر أو الشباب والشيب أو الإقبال والإعراض أو القبول والرفض، وكل هذه الدلالات الرمزية تصبُّ في بوتقة الأسى والألم الذي يعتصر الشاعر، ويهيّج لديه المشاعر.

كما تعددت ألوان البيان الأخرى على أكثر من وجه، فجاءت الاستعارة في نحو قوله: "الخيال الطارق" وقوله "رمى الزمان"، وجاء التشبيه في قوله "وميض شيب" وقوله "وميض بواتر"، والكناية في نحو قوله "مازال يقنع بالخيال الطارق" وقوله: "قطعن علائقي"؛ وقد تضافرت كل هذه الصور المجازية لتسهم في رسم صورة كلية لغياهب الهجر التي لا يُرْتجى لها فَجْر.

وللاستفهام الانكاري نصيب من الحضور في قوله: "أو ميض شيب أم وميض بواتر؟" فهو يتعجب من هذا الوميض الذي تسبب في هجر محبوبته إياه، بعدما قلَّتْ

حيلته، وتقلّصت رغبته في وصلها فيتساءلُ: أي ضوء هذا الذي تسبب في قطع العلاقة ليس مع هند وحدها، بل مع الغانيات كلِّهن، ويبدو أنه وميض غير مرغوب، مكروه غير محبوب، ولعله نذير الفوت، أو صحوة الموت! وقد تعددت نماذج "هجر العذارى" مما يضيق المقام عن ذكره وحصره وإن كانت لشعراء متقدمين عما اعتمد عليهم البحث؛ لوفرة دلالات الأشعار محل الاستشهاد التي توضح مراد الشعراء من الربط بين سن الأربعين وهجر العذارى أكثر من غيرها(١).

(١) من ذلك قول ابن الرومي :

وحدثتُ نُدماني أحاديثَ ما مضى ... من العيشِ أقْفُوها بأنَّه ثاكل
أعاذلتي في الراح أشيهت فارعوِي ... لشأنِك إني لا أدينُ لعاذل
فلو أسمحتْ عنها القرينةُ أسمحت ... لشيبٍ كنُوار الثُّغامة شامل
وقالت : دعِ الشبانَ والكأس إنها ... حِمىً بعد مرِّ الأربعين الكوامل
ألم يكفِها أن المشيبَ أفاتني ... نَصيبي من وصل الحسانِ العطائل

ديوان ابن الرومي، أبي الحسن علي بن العباس بن جريح، ٥/٢٠١٥، دار الكتب والوثائق القومية مركز تحقيق التراث، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ط٣، تحقيق: د. حسين نصار.

ومن ذلك أيضًا قول مهيار الديلمي:

فما كلُّ دارٍ أقفرتْ " دارة الحِمَى " ... ولا كلّ بيضاءِ الترائبِ " زَينبُ "
عجبتُ لقلبي كيف يستقبل الهوى ... و يرجو شبابَ الحيّ والرأسُ أشيبُ
تَضُمُّ حِبالَ الوصلِ من " أمَّ سالم " ... و حبلُكَ بعد الأربعينَ مُقَضَّبُ

ديوان مهيار الديلمي، ٥٢/١، دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٤٤هـ-١٩٢٥م، ط١

ومثل ذلك قول سبط ابن التعاويذي:

حَتَّى انْجَلَى لَيلُ الغَوَايَةِ وَاهْتَدَى ... سَارِى الدُّجى وَانْجَابَ ذَاك الغَيهَبُ
وتَنَافَرَ البِيضُ الحِسَانُ فأَعْرَضَتْ ... عَنِّي سُعَادُ وأَنْكَرَتْني زَيْنَبُ
قَالَتْ وَرِيعَتْ مِنْ بَيَاضِ مَفَارِقي ... وَشُحُوبِ جِسْمِي بَانَ مِنْكَ الأَطْيَبُ
إنْ تَنْقَمِي سُقْمِي فَخَصْرُكِ نَاحِلٌ ... أَوْ تُنْكِرِي شَيْبِي فَثَغْرُكِ أَشْنَبُ

**وجملةُ القولِ في هذا المبحث:**

إن الشاعر المحب إما أن يعيش في نعيم الوصل، أو يتقلب في لظى الهجر، وللهجر أسباب كثيرةٌ كالعادات القبلية التي كانت تأبى أن يكون هناك وصل بين رجل وامرأة خارج الإطار التقليدي العرفي، وكبعد المكان بين المحبين، وكأن تنتقل المحبوبة مع أهلها من مكان وجودها إلى مكان آخر، وكوشاية بين المتحابَّيْنِ تؤدي إلى قطيعة بينهما ... وغيرها من الأسباب، أما أن يكون الهجر لعارض عرض في أحد المحبين ليس له فيه يد، وأعملت فيه يد الدهر عملها ولابد، كالكبر أو الشيب؛ فتكون المعاناة أشد، ويزيد الصراع النفسي ويشتد.

إن اقتران سن الأربعين بهجر العذارى في شعر الشعراء القدامى قد يتفق مع الطريقة الغير السوية التي أقرها علم النفس والتي تتميز بالشعور باليأس والإحباط بسبب ضياع الفرص، واليأس من تعويض ما فات؛ فيشعر الإنسان بانعدام قيمة حياته؛ ولذا فإنه يعاني اليأس والاكتئاب.

ويلجأ الشاعر عادة في هذه الحالة إلى محاولةِ محاورةِ المرأةِ لردها عن صدها، محاولًا إثبات خطئها في هجرها، مذكِّرًا إياها بنعيم القرب، وحلاوة الحب كما فعل السري الرفاء في قوله:

**أَرَهْـــا الأَرْبَعُـــونَ هَشِـــيمَ رَوْضٍ ... وَقَبْـــلَ الأَرْبَعـــينَ رَأَتْ رَبِيعَـــا**

---

**يَا طَالِبًـــا بَعْـــدَ المَشِـــيبِ غَضَـــارَةً ... مِـــنْ عَيشِـــهِ ذَهَـــبَ الزَّمَـــانُ المُـــذْهَبُ**

**أَتَـــرُومُ بَعْـــدَ الأَرْبَعِـــينَ تَعُـــدُّهَا ... وَصْـــلَ الُّمَـــا هَيهَـــات عَـــزَّ المَطْلَـــبُ**

ديوان أبي الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله المعروف بسبط ابن التعاويذي، صـ ٢٣، مطبعة المقتطف – مصر، ١٩٠٣م، صححه: د.س. مرجليوس.

أو متمنيًا وصلها مرة أخرى لعلها تلين أو لعل هجرها يستكين كما فعل الشريف المرتضي في قوله:

**عَــلَّ البخيلــة أن تجــودَ لعاشــقٍ  مــازالَ يقنــعُ بالخيــال الطــارقِ**

ثم هو يسترسل في التودد إليها، ويشعرها بالحنو عليها، لعلها!، فيقول:

**يا هنــدُ إن أنكــرتِ لــونَ ذَوائــبي  فكمــا عهــدتِ علائقــي وطرائقــي**

ثم يعاود خطابها، ليبين لها خطأها، فيقول:

**ووراءَ مــا شَــنِئَتْهُ عينُــك ضَــلَّةً  مــا شــئتِ مــن خُلُــقٍ يسـرُّك رائـقِ**

ولكن الاستجداء، ومحاولة الاسترضاء لم تجد إلى قلب محبوبتيهما سبيلا؛ ذلك لأنهما رأتا أن الأربعين قد أعملت فيهما عملهما فاستحال الشباب عندهما مشيبا، وتحولت النضرة فيهما هشيما.

وهنا يبدأ الصراع النفسي، والصدام الحسي عند الشعراء، وتطفو على السطح ثنائية الغدر والوفاء، وتتأجج مشاعر الهجر واللوعة والصدمة والبكاء، ويحس بفداحة الخطب، والفراغ العاطفي والخواء، فيكره الشيب، ويلصق به كل عيب.

وقد لجأ الشعراء إلى تقنية تشخيص الأربعين والشيب؛ لأن التشخيص بطبعه يمنح صورته حركة دائمة تعكس بدورها واقعه المضطرب، وشعوره الملتهب، الذي يؤدي بالتبعية إلى انتقاء الأساليب الدالة على المعاني وتنوعها، فيعبر تارة عن معنى مرفوض بأسلوب مفروض، وتارة أخرى عن معنى مرغوب بأسلوب المنهزم المغلوب، ثم هو في النهاية لا يملك إلا صرخة داخلية مكبوتة تعادل في قوتها أثر القنبلة الموقوتة، ويظل صراعُه النفسيُّ أبديًا، ويظل نزيفُ قلبِه نديًا.

وقد زاوج الشعراء بين الأساليب الخبرية والإنشائية، مع هيمنةٍ أو شبهها للأساليب الخبرية لأن الشاعر وهو متلبس بهذه الحالة النفسية المتردية بصدد التحسر على ما انقضى من شبابه بعدما أغلقت الأربعون على الشباب بابه، وهو ما يستلزم تقريرًا وتصويرًا ونقلًا وإخبارًا.

كل هذا بجانب الأساليب الإنشائية كالأمر عند السري الرفاء "فأعجب"، "والنداء عند الشريف: "يا هند" والاستفهام "أنى رمى"، وكل هذه الأساليب تعمل على تحريك الذهن، وتمكين الحزن لخلق صورة حركية تخرج المقطوعة من الرقابة النمطية.

وتجدر الإشارة إلى الحالة النفسية التي تملكت على الشاعر فكره وشعوره، فيما يعرف بالتجربة الشعورية والتي سأكتفي بالوقوف فيها على جانبيها: جانب الفكر وجانب الشعور أو الوجدان.

فجانب الفكر الذي طغى على اعتقاد الشاعر هو أن وصله بالغواني قد انتهى، وأن سن الأربعين كان سببًا مباشرًا في إحداث هذا الشرخ وما ترتب عليه من شيب وألم وحزن، ثم تمسكه بأمل العودة إلى أن يكتشف أن القدر قال كلمته بعد ما صبغ الشيب لُمَّتَهُ.

أما جانب الشعور والوجدان فهو يمثل مجموعة العواطف والانفعالات أثناء مروره بهذه الصدمة القوية، وقد بدأت هذه الانفعالات عنيفة عند السَّري الرفاء، هادئة ضعيفة عند الشريف المرتضي، ثم أخذت تتصاعد عند كليهما حتى تحولت إلى غضب وتوتر وضيق وثورة وفورة، ثم ما لبثت أن تحولت إلى ندم وحسرة.

وعلى الرغم من هذا الفصل بين الفكر والوجدان في هذا العرض، إلا أنهما في الأصل ممتزجان متآلفان فلا فكر بدون شعور، ولا شعور بدون فكر، إلا أن هذا الفصل بينهما أدى إلى تسلسل منطقي أبان عن الجانب النفسي السلبي.

## المَبْحَثُ الخَامِسُ
## سِنُّ الأربَعِينَ والشَّيب

على الرغم من كثرة الدراسات الأدبية حول الشيب، باعتباره غرضًا شعريًا قائمًا بذاته تنبعث من خلاله معاناة الشعراء وآلامهم مما ألَمَّ بهم، أو باعتباره عرضًا هامشيًا في مقدمة غزليةٍ، أو باعتباره تجربة ذاتية خالصة يتجسد فيها الصراع بين الحياة والموت أو اللحاق والفوت؛ إلا أنه يبقى شعرًا ثريًّا مُثريًا إن وافقت دوالُّه مدلولاتِه، وأطلقتْ أساليبُه مكنوناتِه، وفجرت عباراتُه آهاتِه.

فلا عجب أن يترنم به من اشتعل رأسه شَيْبًا، ولا غرو أن يتغنى به من زهد من الدنيا سَيْبًا، أما أن يستجديَ ابنُ الأربعين قريحتَه لإنشاده، ويُذهلُ عن حكمته ورشاده؛ فهذا هو العجيب المريب.

لقد قرن عدد غير قليل من الشعراء الأربعين بالشيب، وأسقطوا على هذه السِّنِّ كلَّ عيب؛ فنراهم يجعلون الأربعين سن الضعف واليأس بدل أن يكون سن القوة والبأس، وبعضهم يستسلم في عجز للدهرِ، وكأنه أوقف عند الأربعين عدَّادَ العمرِ، وابتعد بعضهم عن ملذات الشبابِ، وآثر الغيابَ، وشرع بعضهم في التباكي، والبعد عن التصابي ... إلى آخر هذه المعاني التي تجعل من الإنسان شبحًا يعاني.

نجد شيئًا من ذلك عند البحتري[١]، حيث يقول[٢]:

---

(١) هو الوليد بن عبيد أبو عبادة الطائي البحتري، من أهل منبج، بها ولد سنة ستة ومائتين ونشأ وتأدب، وخرج منها إلى العراق فمدح جعفرا المتوكل على الله وخلقا من الأكابر والرؤساء، وأقام ببغداد دهرا طويلا، ثم عاد إلى بلده فمات به، وقيل: بحلب في أول سنة خمس وثمانين ومائتين، وقيل: في آخر سنة أربع وثمانين ومائتين، وبلغ ثمانين سنة، تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، ١٣/٤٧٦-٤٨٠، دار الكتب العلمية – بيروت.

(٢) ديوان البحتري، ١/٣٦٤-٣٦٥، دار المعارف – مصر، ط٣، تحقيق : حسن كامل الصيرفي .

وَمُعَـــيِّرِي بالـــدَّهْرِ يَعلَـــمُ في غَـــدٍ    أنَّ الحَصَـــــادَ وَراء كُـــــلِّ نَبَـــاتِ
أبُـــنَيَّ! إِنِّي قَـــدْ نَضَـــوتُ[١] بَطَـــالَتِي[٢]    فَتحَسَّـــرتْ، وَصَـــحوْتُ مِـــنْ سَـــكَرَاتِي
نَظَـــرَتْ إليّ الأرْبَعـــونَ ، فأصْـــرَخَتْ    شَـــيْبِي ، وَهَـــزَّتْ للحُنُـــوِّ قَنَـــاتِي
وَمِـــنَ الأقـــارِبِ مَـــنْ يُسَـــرُّ بِمِيتَـــتِي    سَـــفَهاً ، وَعِـــزُّ حَيَـــاتِهِمْ بِحَيَـــاتِي

وكأني بالبحتري يقول: فصبرًا في مجال الدهر صبرًا، فما نيل الخلود بمستطاع، فقل للشامتين والمعيِّرين غدًا ستدور الدوائر، وتعرفون العادل مِن الجائر، فلكل عمر كسادٌ، ولكل زرعٍ حصادٌ، وما الحياة إلا فصولٌ، ولكل بزوغ أُفولٌ.

لقد تكشَّف هزالي وضعفي، وتملكني الإجهادُ، ودالت الأيام دولتها، ودارت دورتها، فصحوتُ من غفوتي، وأفقت من سكرتي، وأصبحت حالي لا تخفى على أحد.

إن الأربعين قد أطلت عليَّ برأسها، ورمقتني بعينها، فأظهرت شيبي، وبيّنت عيبي، وأخذتني الشفقة بنفسي، والحسرة على ما ضيعتُ من أمسي.

وكثير ممن حولي يفرحون بحالي، ويرقبون مآلي، بعدما بلغتُ الأربعين، حتى أقرب الأقربين، وهم يجهلون أن حياتي لهم كنزٌ، وبقائي فيهم رمز؛ لسفهٍ أصابهم، وجهل تغشَّاهم.

ومن يمعن النظر في أبيات البحتري السابقة يجد أن الشيب بسن الأربعين مقرونٌ، والكبر ببلوغها مرهونٌ، وقد استطاع البحتري أن يعبر عن هذا المعنى دون تكلف أو عناء؛ فقد استعان بألفاظ وعبارات في غاية اليسر والسهولة والوضوح؛

---

(١) أنضوت: أخلقت وأبليت، لسان العرب، ٣٢٩/١٥، مادة: (نضو).

(٢) بطل: بطالة هزل وضعف، الأفعال، ٧٦/١، مادة: (بطل).

لعلها بمراده تُصَرِّحُ وتبوح.

وليس ثمة تباين في نمطية أبياته أو نبرتها باستثناء العبارة الأخيرة في هذه المقطوعة (وعز حياتهم بحياتي)، فبعد حالة الاستسلام المصحوبة بالحكمة، أشار إلى خطأ اعتقادهم، وبؤس أمنيتهم، بنبرة فخرٍ، وصرخة عجب.

ثم ما أبدع التصوير عندما أدار عدسته على الأربعين، فجسَّدَ وشخص، وأوجز ولخَّصَ! فالأربعون كائن حيّ ينظر، ويُظْهِرُ، ويَهُزُّ، وكأنها إنسانٌ عاقلٌ فَذّ!

لقد أجاد البحتري في توظيف المجاز على سبيل الاستعارة أيما إجادة، وأفاد القارئ بتصويره أيما إفادة، وقد ختم صورته المركبة بالاستعارة البديعة والكناية عن الاستسلام في قوله: "وهزت للحنو قناتي".

لقد كان خروج البحتري على المجاز في هذه الومضة الخاطفة مُفضيًا إلى فائدة دلالية إلى جانب فوائدها الجمالية، حيث إن ميلاد الأربعين يستلزم بداهةً ميلاد الشخص الذي يصل إلى هذه المرحلة العمرية بمقدار هذا العمر، الأمر الذي يعني أن الأربعين حديثة الولادة، ولكنها -على الرغم من حداثة سنها- سرعان ما كبرت وترعرعت، وأصبحت ذي سطوة لدرجة أن نظرتها أضحت مؤثرة، وصرختها دوّت محيّرة، وهزتها أمست معبرة، وكأنها فعلت كل ما فعلت بين صبح ومساء؛ ليترتب على هذا كله مفارقة عجيبة بين قبولٍ واستياء!

كما أن البحتري قد أحسن التعبير عن فكرته، فقد نوّع في طريقة عرضه لومضته، فتارة نراه يعبر تعبيرًا مباشرًا بسيطًا، وتارة نجده يجنح إلى التأمل في ثنايا عرضه، وتارة يعمد إلى التعبير الوصفي أو المجازي، وهذا التنوع أعطى ثراءً للفكرة، وكأن الأربعين والشيب كليهما قائمان في الحضرة.

ومن النماذج التي اقترن فيها الشيب بسن الأربعين، ما قاله الشريف المرتضى[(١)]:

فَيَا شَعْرَاتِ رَأْسٍ كُنَّ سُودًا وحلْنَ بِمَا جَنَاهُ الدَّهرُ جُونَا[(٢)]
مَشِيبُكِ بِالسِّنِينَ وَمِنْ هُمُومٍ وَلَيْتَكِ قَدْ تُرِكْتِ مَعَ السِّنِينَا
كَرِهْتُ الأَرْبَعِينَ وَقَدْ تَدَانَتْ فَمَنْ ذَا لِي بِرَدِّ الأَرْبَعِينَا ؟
وَلاحَ بِمَفْرِقِي قَبَسٌ مُنِيرٌ يَدُلُّ عَلَى مقَاتِلِيَ المَنُونَا

بدأ الشاعر مقطوعته محل الدراسة بنداء شعرات رأسه اللاتي قد أحال الدهر سوادهن بياضًا، أو بالأحرى بدأ البياض يدب في ثنايها، فأصبحت جونا حيث لا بياضًا خالصًا ولا سوادًا خالصًا، ثم استرسل في خطابهن، وكأنهن أصغين لندائه، وأحسسن بوجع دائه، فأخذ يتلمسُ لوجودهن مبرّرا، وبعدما وجده خاطبهن معبرًا: إن السنين والهموم هما سبب هذا التحول والتبدّل، وليتكن لم تَرْكَنَّ لهما، أو تأبهن بهما؛ ولو فعلتن لما كان لهما أيُّ تأثيرٍ، ولما حدث لكُن أي تغيير.

لقد كرهتُ الأربعين عندما اقتربت مني واقتربت منها، فمن ذا يعيدني إلى ما قبل الأربعين، وربما أراد –والله أعلم–: لقد كرهت الأربعين عندما تدانت لأنها تدنيني من الكبر والهرم والشيب، أما وإني قد جاوزتها، وعشت بعدها دهرًا، فمن ذا يعيدني إليها مرة أخرى؟

وسواءٌ أكانت الأربعون تدنيه من الكبر فيريد صَدَّها، أم كانت الأربعون أمنيته التي يتمنى أن يعود إليها؛ فقد صَرَّح بكرهها، والنفور منها.

(١) ديوان الشريف المرتضى، ٣/٣٩٤ .
(٢) الجَوْنُ: الأَسْوَدُ اليَحْمُومِيُّ، تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري،١٣٩/١١، دار إحياء التراث العربي – بيروت – ٢٠٠١م ، ط١، تحقيق: محمد عوض مرعب، مادة: (جون)

ثم نراه يعود إلى الشيب في مفارقة بديعة، فيجعل الشيب في مفرق رأسه كالقبس المنير الذي يرشد الموت إليه، ويدل المنية عليه، وهذا المعنى البديع لم ينفرد به الشريف المرتضي –على ما أعلم– فقد سبقه إليه ابن الرومي(١) عندما قال(٢) :

كفَى بسراج الشيبِ في الرأسِ هاديا ... إلى من أضلَّته المنايا لياليا

أمِنْ بعد إبداءِ المشيبِ مقَاتِلي ... لرامي المنايا تحسبيني ناجيا؟

غدا الدهرُ يرميني فتدنو سهامهُ ... لشخصي ، وأَخلقُ أن يصيب سَواديا

وكان كرامي الليلِ يَرْمي ولا يرى ... فلما أضاء الشيبُ شَخْصي رآنيا

وإن كان لابن الرومي فضل السبق في هذا المعنى؛ فللشريف المرتضي فضل إيجازه.

إن أول شيء يطالعنا من الناحية الفنية هو التنوع في الأسلوب، ودورانه بين الإنشائية والخبرية على السواء، وليس هذا فحسب، بل التنوع في أنواع الأساليب الإنشائية المستخدمة، وهذا التنوع يعطي ثراءً دلاليًا، ويدبجّ الأسلوب جماليًا.

فنجد صورة النداء في قوله "ياشعرات رأسٍ"، ولا يخفى ما يفيده هذا النداء من الألم والحسرة، وإن كانت هذه الشعرات قليلة، ودليل ذلك مجيئها على صورة جمع المؤنث

---

(١) هو علي بن العباس بن جريج أبو الحسن المعروف بابن الرومي، وهو مولى عبدالله بن جعفر، وكان شاعرا مشهورا، ولد سنة إحدى وعشرين ومائتين، ومات في سنة ست وسبعين ومائتين، وذكر أن سبب وفاته أن وزير المعتضد القاسم بن عبدالله كان يخاف من هجوه ولسانه فدس عليه من أطعمه وهو بحضرته طعامًا مسموم، فلما أحس السم قام، فقال له الوزير: إلى أين؟ فقال: إلى المكان الذي بعثتني إليه، قال: سلم على والدي، فقال: لست أجتاز على النار، البداية والنهاية،١١/٧٤-٧٦.

(٢) ديوان ابن الرومي ، ٢٦٤٥/٦ .

السالم الذي يدل على القلة، فعلى الرغم من قلتها إلا أنه ارتاع لمرآها، وما كان له ليتحسر لولاها.

ثم نجد صورة التمني في قوله "وليتك قد تُركتِ مع السنينا" إنه يطلب المستحيل، ولكنه لا يملك له بديل، والتمني من الأساليب التي تعمل على تمكين المعنى في النفس، وتشوقها إلى تحويل المعنى إلى شيء مُحَسّ.

ونجد كذلك في إطار الأسلوب الإنشائي صورة الاستفهام في قوله "فمن ذالي بردِّ الأربعينا" وهذا الاستفهام –كما يبدو لي– يفيد التعجيز، فهو يدرك تمامًا أن ماضيَ شبابه لن يعود، ولو حشد لاسترداده كل الحشود، وكل هذه الأساليب الإنشائية تضافرت بشكل مباشر وصريح مع قسيماتها الخبرية لتجسد واقع الشاعر، وتقرر مرارة المشاعر.

هذه المرارة الناتجة عن تحول شعراته السود عن شكلها المعهود ناتجةٌ عن كثرة السنين وصرخات الأنين الناتجة كذلك عن كثرة الهموم وتحول سحب حياته البيضاء إلى غيوم، وكان سبب ذلك كله هو مداهمة الأربعين ...

وبالنظر إلى خيال الشاعر نجد أن التصوير حاضر، فتشخيص الشعرات عند ندائها "ياشعرات" وكذلك تشخيص الدهر "جناه الدهر"، واستعارة "القبس المنير" للشيب في مفرقه، كلها لمحات تصويرية، وإن شئت فقل تنويرية؛ حيث إن الشاعر قد أبى أن يأتيَ بمعاينة غُفْلًا ساذجةً، فَسرَّجها بهذه الومضات، ودبجها بهذه الإضاءات؛ ليخرج لنا هذا العناق بين الأربعين والشيب في صورة جليلة واضحةٍ ليس فيها ريب.

ومن يدقق النظر في الألفاظ التي استخدمها الشاعر للتعبير عما يعتمل في نفسه يجدها أشد سوداويةٍ من شعراته السود، ويجد أن محيط الحقل اللغوي المستخدم يتطابق

تمامًا مع الشعور الدفين الحزين بسبب مداهمة سن الأربعين، فـ (سودًا– جناه– مشيبك– هموم– كرهت– مقاتلي– المنون) كلها كلمات متناثرة في الشعور قبل أن تكون متناثرةً في الأساليب، يفهم ذلك كُلُّ لبيب.

ولأن المقام يضيق عن تفصيل كل الجوانب الفنية في مثل هذه المقطوعة الشعرية؛ فسأكتفي بالوقوف على هذه المفارقة، أو الثنائية –إن صَحَّ التعبير– في البيت الأخير:

**وَلاحَ بِمَفْرَقِـــى قَـــبَسٌ مُنِـــيرٌ  يَـــدُلُّ عَلَـــى مقَـــاتِلِيَ المَنُـــونَا**

فهذه الصورة الفريدة قد ساعدت على التقاط المعنى، واصطياد المراد، بداية من توظيف الشاعر لفظ (لاح) الذي يفيد بداية الظهور لإتمامه من ناحية، وصبِّه في قالب تصويري يدل على شدة الوضوح والجلاء من ناحية أخرى، ولعل ذلك كله يدخل في باب وفاء الشاعر لمعناه؛ فمظاهر الضياء وإن بدت خافتةً في أول أمرها فهي في حقيقتها دالَّةٌ من دوال الظلام، ليستحيل مصدر البهجة والسرور إلى مظنّةِ هلاك وثبور، وهذا ما فعله نور الشيب في مفرقه؛ إذ كان دليلًا وضّاحًا لأسباب المنايا التي طالما كانت تطلبه لتقضي عليه؛ ليتحول النور إلى ظلام، وهدوء الصمت إلى كِلام.

وهذا علي بن محمد التهامي[١] يسيرُ على نهج سابِقَيْهِ فيقرن الأربعين بالشيب، ويزيد عليها في سوء حالته النفسية؛ حيث إنه نظم هذه الأبيات في رثاء ولده،

(١) أبو الحسن علي بن محمد التهامي، الشاعر المشهور، قال ابن بسام الأندلسي في كتاب الذخيرة في حقه: كان مشتهر الإحسان ذرب اللسان مخلى بينه وبين ضروب البيان، يدل شعره على فوز القدح دلالة برد النسيم على الصبح، ويعرب عن مكانه من العلوم إعراب الدمع عن سر الهوى المكتوم. وله ديوان شعر صغير، وكان قد وصل إلى الديار المصرية مستخفيا ومعه كتب كثيرة من حسان بن مفرج بن دغفل البدوي وهو متوجه إلى بني قرة فظفروا به، فقال: أنا من بني تميم، فلما انكشفت حاله عرف أنه التهامي الشاعر فاعتقل في خزانة البنود وهو سجن بالقاهرة المحروسة، وذلك لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست

يقول[١]:

كَفَى حُزْنًا أَنِّي دَعَوْتُ فَلَمْ يُجِبْ ... وَلَمْ يَكُ صَمْتًا عَنْ وَقَارٍ وَلا وَقْرِ
وَلَمْ يَكُ عَنْ بُعْدِ المَسَافَةِ صَمْتُهُ ... فَمَا بَيْنَنَا إِلَّا ذِرَاعَانِ فِي القَدْرِ
نُنَافِسُ فِي الدُّنْيَا غُرُورًا، وَإِنَّمَا ... قَصَارَى غِنَاهَا أَنْ يَؤُولَ إِلَى الفَقْرِ
وَإِنَّا لَفِي الدُّنْيَا كَرَكْبٍ سَفِينَةٍ ... نُظَنُّ وقُوفًا، وَالزَّمَانُ بِنَا يَجْرِي
وَأَفْنَيْتُ أَيَّامًا فَنِيتُ بِمَرِّهَا ... وَغَايَةُ مَا يَفْنَى وَيُفْنِي إِلَى قَدَرِ
إِلَى اللهِ أَشْكُو مَا أَجِنُّ وَإِنَّنِي ... فَقَدتُكَ فَقْدَ المَاءِ فِي البَلَدِ القَفرِ
عَلَى حِينَ جُزْتُ الأَربَعِينَ مَصُوَباً ... وَلاحَت نُجُومُ الشَّيْبِ فِي ظُلَمِ
إِذَا مَا تَوَلّى ابْنِي وَوَلَّت شَبِيبَتِي ... وَوَلّى عَزائِيَ فَالسَّلَامُ عَلَى الدَهْرِ

إن النظرة الأولى الخاطفة تشي بنفس واجفة، وقلب مروع ملتاع، لا يبغي من الدنيا أي متاع، فغاية حزن الشاعر أن ابنه لم يجبه حين دعاه، وكم تمنى أن لو دعا لبّاه، ثم يبين أن ابنه لم يجب عن عيٍّ أصابه، ولا عن وقار اتصف به، كما أنه لم يجبه بسبب بعد المسافة بينهما، ولكن الموت غيَّبه، فأعملت فيه سنة الحياة عملها، وأُودع القبرَ، وإن كان قريبًا في القدرِ، فما أقربه وما أبعده! على حد قول ابن الرومي: بعيدًا على قربٍ، قريبًا على بعد.

وكأني بالشاعر قد حوقل واسترجع، بعدما جمدت عينه عن أن تدمع؛ ليخرج

---

عشرة وأربعمائة، ثم قتل سرا في سجنه في تاسع جمادى الأولى من السنة المذكورة، وفيات الأعيان، ٣/٣٧٨-٣٨١.

(١) ديوان أبي الحسن علي بن محمد التهامي، صـ٣٤٠، مكتبة المعارف– الرياض، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م، ط١، د. محمد بن عبد الرحمن الربيع .

لنا بحكمة آسرة ولمحة عابرة مفادها: أن الحياة غرور، وأن مآل الإنسان فيها إلى القبر، كما أن مآل الغنى والمال إلى الفقر.

إننا في الدنيا كركب سفينة ماخرة في عرض البحر، يظنها من يراها من بعيد واقفة لا تتحرك بينما هي في الحقيقة مسرعةٌ كسرعة الحياة التي لا تتوقف، والزمان الذي لا يتخفف، لقد فني الشاعر بمرور الأيام، وهذا حال الدنيا مع كل الأنام ولا استثناء ولا استجداء، فكل شيء بقدر، وما من الموت من مفر.

ثم نراه يحبس في صدره الآه، ويشكو بثه وحزنه إلى الله، فأمر الله واقع، ماله من دافع، حتى وإن فقدت أسباب الحياة.

ثم يصل الشاعر إلى موطن الشاهد، وينتحب على العمر البائد؛ فقد جاوز الأربعين، وليس له على حاله من معين، وتبدت نجوم الغيب، ولاحت بوادر الشيب، فأضاءت ظلامًا وفتقت كِلامًا، وأرّقت منامًا، وأطلقت ملاما.

لقد فقد الشاعر كل شيء، ولم يعد ينتظر من الدنيا أي فيء، فَقَدْ فَقَدَ ابنه، وشبابه، ولم يعد له في الدنيا سلوى ... فياضيعة العمر، والسلام على الدهر.

لقد طغت منطقية الواقع على حاله، وسيطرت عليه فاجعة الفقد على الحبيب، وأخذت منه الدنيا بالتلابيب؛ فبدت تجربته حية صادقة خالية من الادعاءات والأكاذيب، ومثله يعذر ولا يعزّر، ويحضرني في هذا المقام قول شوقي في نهج البردة(١):

**لا تَعـذُلوهُ إِذا طـافَ الـذُهولُ بِـهِ مـاتَ الحَبيـبُ فَضَـلَّ الصَـبُّ عَـن رَغَـمِ**

(١) ديوان الشوقيات، أحمد شوقي، ١/٢٧٢، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢م، ط١ .

وفيه توجيه إلى ترك اللوم على أصحاب المصائب الشديدة التي قد تصيب بعضهم بالذهول من شدة هولها.

ولأن المصائب لا تأتي فرادى، فقد اجتمعت عليه مصيبة الفقد، ومصيبة الشيب، ورغبته عن زخارف الدنيا، ومظاهر الحياة ... فرفض الكلام، وألقى على الدهر السلام، ولا ملام!

والشاعر قد جمع في تسلسل منطقي أسباب عزوفه، واختزالها في حروفه ذات الإيقاع السريع الحزين؛ ليدل على الألم الدفين.

والمقطوعة مع كآبة جوها العام لا تخلو من فنّيات عظام، بداية من أسلوبها الخبري التقريري الذي تنبض فيه كل كلمة بصدق شعوره، وتؤكد ما يعتمل في نفسه، وتقرر صرخات صامته ظلت حبيسة صدره.

وقد استعان الشاعر بأسلوب القصر الذي يحدد ويؤكد، ويفَصِّل ويؤَصِّل في غير موضع مع اختلاف طرائقه، فنراه على صورة النفي والاستثناء في قوله: "فما بيننا إلا ذراعان" كما نراه على صورة "إنما" في قوله: "إنما قصارى غناها أن يؤول إلى الفقر"، ونراه على صورة تقديم ما حقه التأخير في قوله: "إلى الله أشكو"، والشاعر في هذا كله ينفي عن لوعته كل شك وإنكار، ويمكن معانيه في نفوس سامعيه ويحملهم على التصديق والإقرار، محاولًا بذلك رسم لوحة قائمة ... وإن كانت قاتمة!

ولم ينس شاعرنا أن يجمع بين الأربعين والشيب في صورة تكاد تكون مكرورة، إلا أنها في الذهن محفورة، فقد اقتفى أثر الشريف المرتضي في صورته أو كاد، فما أن وصل إلى سن الأربعين حتى لاحت نجوم الشيب في لُمَّة شعره الأسود، ولكنه سلك هنا طريق التشبيه البليغ، حيث شبه الشعر الأبيض الذي هو دليل الشيب بالنجوم بجامع اللمعان

وشدة الإضاءة في كل، ولا يخفى ما لكلمة "لاحت" من أثر سبق بيانه عند الشريف المرتضي، كما لا يخفى أثر "في" الظرفية التي تدل على التداخل والتلاحم بين البياض والسواد، وكذلك مجيء الفعل "لاحت" على صورة الماضي ليدل على حدوث الفعل مرة واحدة، ولكنها ثابتة غير متجددة.

وبالحديث عن التجربة الشعرية في هذه المقطوعة نجد أنها قد استوفت كل مراحلها، فالمؤثر –وهو أول مراحل التجربة– كائن وماثل، وقد تمثل المؤثر في حالة فقد الشاعر ابنَه، ومظهر الشيب الذي كان نتيجة طبيعية لبلوغه الأربعين، وعدم وجود سلوى له في الحياة بعد ما ألمَّ به، وقد بدا المؤثر قويًا مسيطرًا على مشاعره وأفكاره.

ثم تأتي التجربة الشعورية التي ملكت على الشاعر لُبّه وقلبه، حيث إنه وصل لنتيجة حتمية اختزلها في قوله "فالسلام على الدهر" على الرغم من تفاوت انفعالاته بين الحزن ثم الهدوء والحكمة ثم التوجه بشكوى مصابه إلى الله تعالى، ثم عودته للحزن عند تذكر الشيب وبلوغه سن الأربعين، ونلاحظ في كل ذلك تداخلًا وامتزاجًا قويًا بين فكره وشعوره.

وصدق انفعال الشاعر في هدوئه وثورته، وتطابق لغته التصويرية مع حالته النفسية، أثمرا عن ميلاد التجربة الشعرية؛ لأن التجربة الشعرية متى خرجت من مكنون نفس الشاعر، وعبّر عنها تعبيرًا حقيقيًا أو رمزيًا؛ استحالت إلى تجربة شعرية حيَّة.

ولأن صورة "الأربعون والشيب" تعد مجرد صورة واحدة من صور متعددة في موضوع "سن الأربعين.." آثرتُ الاكتفاء بما عرضت من نماذجَ في هذا السياق، بعد ما حاولت الوقوف على أبرز السمات –لا على كل السمات– في كل صورة، في

محاولة لاستيعاب أكبر قدر منها، وإن كانت النماذج في هذه الصورة كثيرة[١]:

**وجملةُ القولِ في هذا المبحث:**

إن مزج الشعراء بين سن الأربعين والشيب قد يتفق مع ما ورد من مأثورات السلف إذا عمد الشعراء إلى مزج سن الأربعين والشيب باعتباره سن الرجوع والتوبة إلى الله ﷻ، والتأمل والتدبر في نعمة ﷻ؛ يكون هذا المزج -والحالة هذه- مزجًا سويًا

---

(١) من ذلك ما نجده عند ابن الخياط، إذ يقول:

خَلِيلَيَّ ما كُلُّ العَسِيرِ بِمُعْجِزٍ ... مَرامِي ولا كُلُّ اليَسِيرِ يُنالُ
وَلَيْسَ أُخو الحاجاتِ مَنْ باتَ راضِياً ... بِعَجْزٍ على الأقْدارِ فيهِ يُحالُ
تَقَلَّبْتُ فِي ثَوبِي رَخاءٍ وَشِدَّةٍ ... كَذلِكَ أحْوالُ الزَّمانِ سِجالُ
وقَدْ وَسَمَتْنِي الأَرْبَعُونَ بِمَرِّها ... وحَالَتْ بِشَيْبِي لِلشَّبِيبَةِ حالُ

ديوان ابن الخياط، أبي عبد الله أحمد بن محمد بن علي التغلبي المعروف بابن الخياط الدمشقي (ت: ٥١٧ هـ)، رواه تلميذه: أبي عبد الله بن نصر القيسراني، صـ ٢٨٩-٢٩٠، المجمع العلمي العربي – المطبعة الهاشمية – دمشق، ١٣٧٧هـ – ١٩٥٨م، تحقيق: خليل مردم بك.

وكذلك على نحو ما نجد عند الباخرزي، إذ يقول:

ومُذ أَعلقتْني الأربعونَ حِبالَها ... تراءَتْ لعيني الأرضُ كِفّةَ حابِلِ
وما شعراتي البيضُ إلا مشاعلٌ ... ومِن نارِ قلبي نورُ تلك المشاعلِ
وما الشيبُ إلا شائبُ الصّفوِ بالقَذى ... ولا وخطه إلا نذيرُ الغوائلِ
سقى الله أيام الصبا ، فهي حقها ... لبان ضروعٍ للنعيم حوافلِ

ديوان الباخرزي، علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي، ٤٦/١، (د.ت/ط).

ونجد نحو ذلك أيضًا عند أسامة بن منقذ، حيث يقول:

قالُوا : نهتهُ الأربَعون عن الصِّبا ... وأخُو المشيبِ يجورُ ثُمَّتَ يَهتدِي
كم ضلَّ في ليلِ الشباب فدلَّه ... وضحُ المشيبِ على الطريقِ الأقصدِ
وإذا عددتُ سِنِيَّ ثم نقصتها ... زَمَنَ الهمومِ فتلك ساعةُ مَولِدِي

ديوان أسامة بن منقذ، أسامة بن منقذ، ٥٢٧/١، (د.ت/ط).

محمودًا، أما إذا عمد الشعراء إلى هذا المزج باعتباره سن التمادي والتماهي في الغواية والضلال؛ فإنه بالتبعية سيؤدي إلى الشعور بالإحباط واليأس، والإحساس بدنو الأجل ويكون المزج بين الأربعين والشيب –والحالة هذه- يكون مزجًا مذمومًا، والغالب في الأربعين والشيب هو الشعور باليأس والإحباط، والإحساس بدنو الأجل وإعراض الدنيا.

لقد اتسمت اللغة في مظهر "الأربعين والشيب" بالسلاسة والسهولة على وجه العموم، وعدم تبذلها أو إغرابها، ووضوح معانيها وصحتها، ولطف الإشارة وحسن العبارة، وصدق التجربة والتعبير، والاعتماد –غالبًا– على اللغة المباشرة التي تفيد التقرير.

فجاءت ألفاظهم تجسيدًا حقيقًا لأفكارهم، وعبرت عن عبقرية كامنة في إبداعهم، حيث صرح كل شاعر منهم بلفظ الأربعين، وأسنده إلى الشيب أو أسند الشيب إليه، وجعل باقي الألفاظ في خدمتهما، ومِن سَدَنَتِهما، بحيث يكون كل لفظ مفعم بطاقةِ وصلٍ مع مُجاوره، وكأنه يتحدث مع جاره ويحاوره، وبالتالي فإن كل لفظة تستمد حيويتها من موافقتها للمقام، وملاءمتها للسياق؛ فعلاقة الألفاظ ببعضها إذا مبنية على الوفاق، لا النزاع والشقاق.

كما نجد أن هناك قواسم مشتركة من الألفاظ التي استخدمها كل شاعر فـ (الدهر– الدنيا– الزمن– الأربعون– الشيب– الحسرة– التمني– الظلام) كلها دارت بشكل أو بآخر على ألسنة الشعراء بصورة كثيفة متلاحقة، مما صبغ صورة الشيب في سن الأربعين بصبغة قاتمة تلائم ما انطوت عليه نفوسهم.

وكما جاءت ألفاظهم، جاءت طرائق تعبيرهم، فكانت أساليبهم تجسيدًا حيًا لما يعتمل في صدورهم، واتسمت بالقوة والجمال مع الدقة والوضوح دون تكلف، كما تنوعت بين الخبرية والإنشائية؛ لتفتح للشعراء آفاقًا جديدة للتعبير عن عواطفهم في غير

رتابةٍ أو ملل أو نمطية في الأداء على نحو ما نرى عند البحتري، والشريف المرتضي اللذين نوّعا في أساليبهما، بينما جاءت مقطوعة التهامي خبرية تقريرية مباشرة لأنه كان يجمع إلى جانب مصيبة الشيب مصيبة الفقد.

ووحدة الجو النفسي متحققة متماسكة في النماذج محل الدراسة، أفكارها مرصوصة مصفوفة، تعبر عن نفسٍ واحدة، وحالة حزن سائدة، لا تتبدل ولا تتغير، فهم يرون —من وجهة نظرهم— أن الأربعين إذا قرعت الأبواب؛ فقد ذهب الشباب، وسافر دون إياب، واقترب موعد الغياب.

لقد سيطرت هذه الحالة عليهم، وتمكنت من نفوسهم، حتى صارت عقيدة يؤمنون بها، وشريعة يدينون لها.

وهم حين يجنحون إلى التصوير يمنحون أشعارهم تأثيرًا جماليًا ودلاليًا؛ إذ يحسنون توظيف الصور الشعرية بقدر حاجتهم إليها دون مبالغة أو سرف، أو استعراض أو ترف، فاهتماهم بالصور الشعرية أخرج انفعالاتهم من دائرة النثرية التقريرية البائسة، والسردية اليائسة، فأرسلوا في ثنايا أشعارهم حرارة جمالية نابضة، وطاقة دلالية فائضة.

وبالنظر إلى النماذج السابقة نجد أن الشعراء قد وظفوا صورهم أحسن توظيف، فشخصوا سن الأربعين، وحوّلوا الدهر إلى إنسان، والشيب إلى قبس من نور يحرك الوجدان، وإلى مرشد يرشد المنايا إليهم، ووحش موت كاسرٍ ينقضُّ عليهم.

كل هذا وغيره يدل على حضور الصورة في أشعارهم حضورًا قويًا، زاهيًا بهيًا، حيث لم يكن حضورهم البياني حضورًا ثانويًا، وإنما كان حضورًا أساسيًا ثريًا، استدعاه الحال، واقتضاه المقام؛ فتمت به روعة الكلام.

أما عن العاطفة فحدِّث ولا حرج؛ إذ إنها بكل حرفٍ من حروفهم تمتزج، وبدا أثر العاطفة على المتلقي واضحًا في تسلسل منطقي نتيجة لإحساس المتلقي بعاطفة الشعراء، فقد أحسّ الشعراء بأن سن الأربعين هو الموت المستكين الذي سرعان ما سوف يستفيق، ويقطع عليهم الطريق؛ فتظهر بداية عاطفة الشفقة والحنو ثم ما تلبث أن تتحول إلى الحسرة على ما فات، والخوف مما هو آت، والتي بدورها تتحول إلى صدمة الواقع.

ولما كانت العاطفة باعث وجداني يختلج المشاعر، أو انفعالات حول معنى في نفس الشاعر؛ كان خوفهم ووجلهم من الأربعين منطقيًا، وإحساسهم بقرب آجالهم فطريًا، الأمر الذي ساهم في توجيه خيال الشعراء للتعبير عما يجول بخواطرهم من معانٍ وآراء، ولن أخوض في صدق العاطفة وزيفها أو قوتها وضعفها؛ لأن النماذج الشعرية السابقة ناطقة بحرارتها، باسقة بجودتها التي تنافي الضعف، وتغاير الزيف.

## الخَاتِمَةُ

وبعد هذا التطواف حول سن الأربعين ودلالاته في الشعر العربي القديم، والذي دارت فيه سن الأربعين في فلك النبوة والملك والحكم، كما دلت على الرشد والحكمة ودخلت في كنف الشيب وأشارت إلى هجر العذارى؛ تصل هذه الدراسة إلى نهاية المطاف، وخير متاعها خاتمةٌ تفيضُ ببعض قطراتها ونجني من خلالها بعض ثمرتها، ونرصد أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

أولًا: قامت الدراسة التحليلية لسن الاربعين على نمطين مختلفين، أحدهما هو النمط الأفقي الذي يحاول الإمساك بكل الظواهر الفنية للعمل، أو بعدة ظواهر منها والسير معها سيرًا عرضيًا في محاولة لتحقيق التماسك النصي، والآخر هو النمط الرأسي الذي يقومُ على اختيار ظاهرة إبداعية واحدة، في محاولةٍ لإيجاد القيمة الفنية التي تمثلها هذه الظاهرة، وقد جاء هذا النمط الأخير في نهايةِ كل مطلب تحت عنوان: "وجملة القول...".

ثانيًا: لم تكن دراسة سن الاربعين غاية في ذاتها وإنما كانت وسيلة حاولت أن أستجلي بها دلالات هذه المرحلة العمرية التي أوليت عناية خاصة في القرآن الكريم، والسنة النبوية، وعلم النفس والشعر العربي.

ثالثًا: تم تقسيم البحث الى مطالبه التي جاء عليها وفقا للمادة الشعرية المتاحة، مع تقديم النظرة التفاؤلية لهذه السن متمثلة في "النبوة، والملك، والحكمة" على النظرة التشاؤمية متمثلة في "هجر العذارى والشيب".

رابعًا: جاءت سن الأربعين في القرآن الكريم للدلالة على كمال النضج، وتمام العقل، والدعوة إلى التأمل، وشكر نعم الله على الإنسان، والحث على التوبة والإنابة

إلى الله ﷻ ولم تختلف هذه الدلالة في السنة النبوية كثيرًا.

خامسًا: وافقت نظرة علم النفس نظره التنزيل المبين، وسنة خير المرسلين، مع اختلاف في الشكل لا المضمون، وتباين في المسميات لا المقصود، ولعلها وافقت آراء الشعراء؛ لأنها نابعة من النفوس، معبرة عن المحسوس، فجاءت نظرة الشعراء للأربعين على الطريقة السوية الثرية بالمعاني الإيجابية، كما جاءت على الطريقة غير السوية المشحونة بالمعاني السلبية.

سادسًا: طغت الصورة الفنية (الحقيقية والحسية) على ما عاداها من عناصر الدراسة الفنية في الأربعين وسن النبوة؛ فجعلت نزول الوحي على النبي الأمين في سن الأربعين لوحة فنية غنية بعناصر التدبيج، وكأنها لحظة التتويج.

سابعًا: بدت الحبكة في ترابط الأحداث وتشابكها، وكمال الصورة وتماسكها بارزة في سن الأربعين والملك، وجاء ترتيب الأحداث فيها منطقيا، وتأكيد الفكرة فيها سليقيًا.

ثامنًا: خلت الألفاظ والأساليب في الاربعين والحكمة من التعقيد والتقييد، وجاءت مرسلة ساذجةً، مستهدفةً صلب المعاني، وكان أسلوب الحكمة أشبه بالأسلوب الحجاجي الذي يتدرعُ بالأدلة والبراهين مع قلة الخيال والصور؛ لإفساح المجال للعظات والعبر.

تاسعًا: تمكنت الحالة النفسية من الشعراء في الأربعين وهجر العذارى، فظهر الصراع النفسي، وبرز الصدام الحسي، وتجلت التجربة الشعورية المكتظةِ بالخذلان بجانبيها: جانب الفكرة، وجانب الوجدان.

عاشرًا: ثمة ملمح واضح في هذه الدراسة يتمثل في (الأنا والآخر)، ففي المبحثين الأولين اللذين تناولا النبوة والملك تظهر نزعة الآخر متمثلًا في شخص الشاعر الذي يصف النبوة والملك في هذه المرحلة؛ فالنزعة ليست ذاتية، ولا يعنى هذا خلوها من العاطفة، بينما في بقية المطالب في البحث تظهر نزعة الأنا متمثلة في التجربة الذاتية لدى الشعراء.

حادي عشر: اتسمت اللغة بالسهولة في الأربعين والشيب، حيث عبرت ألفاظهم عن أفكارهم وما يعتمل في نفوسهم، كما ظهرت وحدة الجو النفسي في أشعارهم متشحة بصدق عاطفة الحزن والحسرة، حيث انقضى العمر ولم يعد فيه وفرة، وقد أحسن الشعراء توظيف الصورة الشعرية في توصيف اللوعة النفسية.

# ثَبْتُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ


١ **القرآن الكريم.**

٢ **ابن زهر (الحفيد) وشاح الأندلس**، د. فوزي سعد عيسى، منشأة المعارف – الإسكندرية، (ت، ط).

٣ **الأفعال**، أبو القاسم علي بن جعفر السعدي، عالم الكتب – بيروت – ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، ط١.

٤ **اكتفاء القنوع بما هو مطبوع**، أدورد فنديك، دار صادر – بيروت – ١٨٩٦م.

٥ **الأمالي**، أبوعلي القالي إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (ت: ٣٥٦هـ)، دار الكتب المصرية ،١٣٤٤ هـ – ١٩٢٦م، ط٢، رتبها: محمد عبد الجواد الأصمعي.

٦ **البداية والنهاية**، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، مكتبة المعارف – بيروت.

٧ **تاج العروس من جواهر القاموس**، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين.

٨ **التاريخ الصغير (الأوسط)**، محمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ)، دار الوعي، مكتبة دار التراث – حلب، القاهرة – ١٣٩٧ – ١٩٧٧، ط١، تحقيق: محمود إبراهيم زايد.

٩ **تاريخ بغداد**، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية – بيروت.

١٠ **تفسير الجلالين**، محمد بن أحمد+ عبد الرحمن بن أبي بكر المحلى+ السيوطي، دار الحديث– القاهرة، ط١.

١١ **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، دار الفكر- بيروت، ١٤٠١هـ.

١٢ **تهذيب اللغة**، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ٢٠٠١م، ط١، تحقيق: محمد عوض مرعب.

١٣ **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة-بيروت ،١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، تحقيق: ابن عثيمين.

١٤ **الثقات**، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، دار الفكر - ١٣٩٥ - ١٩٧٥م، ط١، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد.

١٥ **الجامع الصحيح المختصر**، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار ابن كثير - اليمامة -بيروت ،١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ط٣، تحقيق: مصطفى ديب البغا.

١٦ **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار (ت: ١٣٣٥هـ)، (د.ت/ط).

١٧ **دلائل النبوة**، للبيهقي، (ت: ٤٥٨ هـ)، (د.ت/ط).

١٨ **ديوان ابن الخياط**، أبي عبد الله أحمد بن محمد بن علي التغلبي المعروف بابن الخياط الدمشقي (ت: ٥١٧ هـ)، رواه تلميذه: أبي عبد الله بن نصر القيسراني، المجمع العلمي العربي - المطبعة الهاشمية - دمشق، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م، تحقيق: خليل مردم بك.

١٩ **ديوان ابن الرومي**، أبي الحسن علي بن العباس بن جريح، دار الكتب والوثائق القومية مركز تحقيق التراث، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ط٣، تحقيق: د. حسين نصار.

٢٠ **ديوان ابن المعتز**، أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيدي (ت: ٢٩٦هـ)، مطبعة الإقبال - بيروت، ١٣٣٢هـ، فسر ألفاظه:

محي الدين الخياط، طبع بمناظرة: عبد الباسط الأنسي.

٢١ **ديوان ابن سهل**، قدم له: د. إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م.

٢٢ **ديوان ابن شهاب**، أبي بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين، مكتبة التراث – دار التراث اليمني، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م، ط٢.

٢٣ **ديوان أبي الحسن علي بن محمد التهامي**، مكتبة المعارف – الرياض، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م، ط١، د. محمد بن عبد الرحمن الربيع

٢٤ **ديوان أبي العلاء المعري** "اللزوميات "، التوفيق الأدبية – مصر، ١٣٤٢هـ، تحقيق: أمين عبد العزيز الخانجي.

٢٥ **ديوان أسامة بن منقذ**، أسامة بن منقذ، (د.ت/ط).

٢٦ **ديوان الأبيوردي** أبي المظفر محمد بن أحمد بن إسحاق (ت: ٥٠٧ هـ)، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، ط٢، تحقيق: عمر الأسعد.

٢٧ **ديوان الأقيشر الأسدي**، دار صادر –بيروت، ١٩٩٧م، ط١، صِنعة: د. محمد علي دقة

٢٨ **ديوان الباخرزي**، علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي، (د.ت/ط)

٢٩ **ديوان البحتري**، دار المعارف – مصر، ط٣، تحقيق: حسن كامل الصيرفي.

٣٠ **ديوان السري الرفاء**، دار الرشيد للنشر – منشورات وزارة الثقافة والإعلام الجمهورية العراقية –سلسة كتب التراث، ١٩٨١م، تحقيق: د. حبيب حسين الحسني.

٣١ **ديوان الشريف المرتضي**، د. محمد ألتونجي، دار الجيل – بيروت، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، ط١.

٣٢ **ديوان الشوقيات**، أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢م، ط١

٣٣ **ديوان الصرصري**، أبي زكريا جمال الدين يحي بن يوسف البغدادي الحنبلي (ت: ٦٥٦هـ)، منشورات جامعة اليرموك، تحقيق وتقديم: د. مخيمر صالح.

٣٤ **ديوان حسان بن ثابت**، حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد (ت: ٥٤ هـ)، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ط٢، شرحه وقدم له: عبدأ مهنا.

٣٥ **ديوان دعبل بن علي الخزاعي**، دار الكتاب العربي، بيروت ،١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ط١، شرحه: حسن حمد

٣٦ **ديوان سبط ابن التعاويذي**، مطبعة المقتطف – مصر، ١٩٠٣م، صححه: د.س. مرجليوس.

٣٧ **ديوان صفي الدين الحلي**، صفي الدين الحلي، دار صادر – بيروت.

٣٨ **ديوان عمر بن أبي ربيعة**، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤١٦هـ -١٩٩٦م، ط٢، قدم له: د. فايز محمد.

٣٩ **ديوان مهيار الديلمي**، دار الكتب المصرية - القاهرة، ١٣٤٤هـ-١٩٢٥م، ط١.

٤٠ **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار**، أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م، ط١، تحقيق: عبد الأمير مهنا.

٤١ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤٢ **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، محمد بن يوسف الصالحي الشامي(ت:٩٤٢هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض.

٤٣ **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقريزي (ت:٨٤٥هـ - ١٤٤١م)، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ط١، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

٤٤ **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت:٧٤٨هـ)، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م، ط٣، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط.

٤٥ **شرح ديوان ذي الرمة**، الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤١٦هـ -١٩٩٦م، ط٢، كتب مقدمته وهوامشه وفهارسه: مجيد مطر.

٤٦ **شرح ديوان علقمة الفحل**، الأعلم الشنتمري، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م، ط١، قدم له ووضع هوامشه: د. حنا نصر

٤٧ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت: ٣٥٤هـ)، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٤ - ١٩٩٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.

٤٨ **الطبقات الكبرى**، محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، (ت: ٢٣٠ هـ)، دار صادر – بيروت

٤٩ **علم نفس النمو الرشد والشيخوخة**، د. بشرى أيوب شريبه، منشورات جامعة تشرين- كلية التربية، ٢٠١٧م-٢٠١٨م.

٥٠ **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر - بيروت، ط:١

٥١ **المحاسن والمساوئ**، إبراهيم بن محمد البيهقي (ت :٣٢٠هـ)، دار صادر – بيروت (ت، ط).

٥٢ **مختار الصحاح**، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – ١٤١٥ – ١٩٩٥، طبعة جديدة، تحقيق: محمود خاطر.

٥٣ **المستدرك على الصحيحين**، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١١هـ -١٩٩٠م، ط١، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

٥٤ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة –مصر.

٥٥ **مشاهير علماء الأمصار**، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، دار الكتب العلمية – بيروت – – ١٩٥٩، تحقيق: م. فلايشهمر.

٥٦ **معجم الفروق اللغوية**، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، دار العلم والثقافة – القاهرة، تحقيق: محمد إبراهيم سليم.

٥٧ **معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم**، أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الكوفي نزيل طرابلس الغرب (ت:٢٦١هـ)، مكتبة الدار – المدينة المنورة – السعودية – ١٤٠٥ – ١٩٨٥، ط١، تحقيق: عبد العليم عبد العظيم البستوي.

٥٨ **المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء**، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (ت: ٣٧٠هـ)، (د.ت/ط).

٥٩ **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، إسماعيل باشا البغدادي (ت: ١٣٣٩هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٣ – ١٩٩٢م.

٦٠ **وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت: ٦٨١هـ)، دار الثقافة – لبنان، تحقيق: احسان عباس.

٦١ **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت: ٤٢٩هـ)، الكتب العلمية - بيروت/لبنان - ١٤٠٣هـ١٩٨٣م، ط١، تحقيق: د. مفيد محمد قمحية.

# فهرس الموضوعات


| الموضوع | رقم الصفحة |
|---|---|
| ملخص البحث باللغة العربية | ٥٩١ |
| ملخص البحث باللغة الإنجليزية | ٥٩٢ |
| المقدمة | ٥٩٣ |
| التمهيد: "دلالات سِنّ الأربعين " | ٥٩٦ |
| أولًا: دلالة سن الأربعين في ضوء القرآن الكريم | ٥٩٦ |
| ثانيًا: دلالة سن الأربعين في ضوء المرويات الحديثية والأقوال المأثورة | ٥٩٩ |
| ثالثًا: دلالة سن الأربعين في ضوء علم النفس | ٦٠٢ |
| المبحث الأول: "سن الأربعين والنبوة" | ٦٠٥ |
| المبحث الثاني: "سن الأربعين والملك" | ٦١٥ |
| المبحث الثالث: "سن الأربعين والحكمة" | ٦٢٤ |
| المبحث الرابع: "سن الأربعين وهجر العذارى" | ٦٣٩ |
| المبحث الخامس: "سن الأربعين والشيب" | ٦٥٣ |
| الخاتمة | ٦٦٨ |
| ثبت المصادر والمراجع | ٦٧١ |
| فهرس الموضوعات | ٦٧٨ |